مهذب جلاء البصائر

في فكر محمد بن علوي المالكي

للشيخ: سمير بن خليل المالكي

تهذيب:

سعد بن عبد الرحمن الحصيِّن

حـــفـظ حـــقـــوق الطبع قـــانون وضـــعيّ
والعلوم الشـريعة لا يجوز تحجيرهـا ولا احتكارها
ونشـــرها ابتـغـاء وجـه الله عـبـادة صـالحـة

طبع المهذب للمرة الأولى ١٤٢٥هـ - ٢٠٠٤

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿الحمد لله الذي خلق السموات والأرض وجعل الظلمات والنور ثم الذين كفروا بربهم يعدلون﴾ ﴿وقال الله لا تتخذوا إلهين اثنين إنما هو إله واحد فإياي فارهبون* وله ما في السموات والأرض وله الدين واصباً أفغير الله تتقون* وما بكم من نعمة فمن الله ثم إذا مسكم الضر فإليه تجئرون* ثم إذا كشف الضر عنكم إذا فريق منكم بربهم يشركون* ليكفروا بما آتيناهم فتمتعوا فسوف تعلمون﴾ .

﴿يا أيها الناس اعبدوا ربكم الذي خلقكم والذين من قبلكم لعلم تتقون* الذي جعل لكم الأرض فراشاً والسماء بناءً وأنزل من السماء ماءً فأخرج به من الثمرات رزقاً لكم فلا تجعلوا للّه أنداداً وأنتم تعلمون﴾ .

﴿أم اتخذوا آلهة من الأرض هم ينشرون* لو كان فيهما آلهة إلاّ اللّه لفسدتا فسبحان الله رب العرش عما يصفون* لا يسأل عما يفعل وهم يسألون* أم اتخذوا من دونه آلهةً قل هاتوا برهانكم هذا ذكر من معي وذكر من قبلي بل أكثرهم لا يعلمون الحق فهم معرضون* وما أرسلنا من قبلك من رسول إلاّ نوحي إليه أنه لا إله إلاّ أنا فاعبدون﴾ .

وأشهد أن لا إله إلاّ الله وحده لا شريك له ، شهادة مقر

بربوبيته ، شاهد بوحدانيته ، مذعن له بطاعته ، معترف بنعمته ، فار إليه من ذنبه وخطيئته ، مؤمل لعفوه ورحمته ، طامع في مغفرته ، بريء إليه من حوله وقوته ، لا يبتغي سواه رباً ، ولا يتخذ من دونه ولياً ولا وكيلاً ، عائذ به ملتجىءٍ إليه ، لا يروم عن عبوديته تبديلاً ولا تحويلاً ، ولا يستعين ولا يستغيث إلاّ به ، ولا يلجأ في الرخاء ، ولا في الشدة إلاّ إليه ، ولا يطلب المدد إلاّ منه ، ولا يدعو إلاّ إياه .

وأشهد أن محمداً عبدالله ورسوله ، وخيرته من خلقه وأمينه على وحيه ، أقرب ولد آدم إليه وسيلة ، وأعظمهم عنده جاهاً وأسمعهم لديه شفاعة ، وأحبهم إليه وأكرمهم عليه .

رفع له ذكره ، وشرح له صدره ، ووضع عنه وزره ، وجعل الذلة والصغار على من خالف أمره .

أرسله الله على حين فترة من الرسل ، والناس من الكفر والجهل والضلال في أقبح خيبة وأسوأ حال ، يعبدون الأصنام ويدعون الأوثان ويتخذون الأنداد ، وقد جمعوا إلى ذلك ألواناً من الفواحش والمنكرات ، كالقتل والزنا وشرب الخمر ونكاح المحارم ووأد البنات ، زيادة في الكفر وإمعاناً في الغي والضلال .

فقام فيهم رسول الله ﷺ بما أوجبه الله عليه من الدعوة والتبليغ والإنذار خير قيام ، ودعاهم أول ما دعاهم إلى توحيد الله وترك الإشراك به ونبذ آلهة الأوثان والأصنام ، فأبوا عليه وعاندوه وكذبوه ، ثم تمالؤا عليه فآذوه وأخرجوه ، هو ومن آمن معه- وما آمن معه إلا قليل- .

وظل ﷺ مشمراً في تبليغ هذا الدين لا يرده عنه راد ، صادعاً بما أمره الله لا يصده عنه صاد ، حتى أشرقت برسالته الأرض بعد ظلماتها ، وتألفت بدعوته القلوب بعد شتاتها ، وعز جند الرحمن وذل حزب الشيطان وظهر نور الفرقان وقامت حجة الله على الإنس والجان .

فلما أظهر الله دينه وأكمله ، وأتم على عباده نعمته وفضله ، قبض إليه عبده ورسوله ، تاركاً أمته على محجة بيضاء نقية وطريقة واضحة سوية لا يزيغ عنها إلا هالك .

وظل نور النبوة ساطعاً في القرن الأول لم تطفئه عواصف الأهواء ، ولم يلتبس بظُلَم الآراء ، حتى ظهرت فيهم الفتنة بعد مقتل الخليفة الراشد أمير المؤمنين عثمان بن عفان رضي الله عنه ، ونشأت من يومها الفرقة في الأمة ، وظهرت البدع والأهواء ، وخرجت الفرق الضالة كالخوارج والشيعة والقدرية وأهل الإرجاء . ثم كثرت في القرنين الثاني والثالث وتفرعت وافترقت ، وازدادت كثرة في القرون التي تلت . ولم تزل تنمو وتكثر وتتعدد ، تحقيقاً لقدر الله تعالى ، وتصديقاً للحديث الذي أخبر فيه ﷺ أن أمته ستفترق إلى ثلاث وسبعين فرقة كلها في النار إلا واحدة . وهذه الفرقة الناجية والطائفة المنصورة هي التي بقيت على عهده ونهجه القويم ، مستمسكة بحبل الله المتين متبعة صراطه المستقيم ، مستضيئة بنور السنة والكتاب ، مستنيرة بمنهج خلفائه وأصحابه وتابعيه ، قائمة بما أمر الله به من النصح والبيان والجهاد باليد واللسان والبنان .

ولقد سطر التاريخ حوادث متنوعة ووقائع متعددة من جهاد سلف هذه الأمة الخيرة دُعَاةَ البدع والأهواء مع ظهور أول بدعة في الدين ، بدعة التكفير التي أسسها الخوارج ، فقام الصحابة رضي الله عنهم بواجب الرد والإنكار ، فجادلهم حبر هذه الأمة عبدالله بن عباس رضي الله عنهما وحاجَّهم ، فهدى الله به جماعة منهم ، وأصر الباقون على بدعتهم فقاتلهم الصحابة في وقعة النهروان سنة ثمان وثلاثين من الهجرة .

ورد علي بن أبي طالب رضي الله عنه على الشيعة بدعتهم ، ولما أصر غلاتهم على الكفر حرقهم بالنار ليكونوا عبرة لأولي الأبصار .

وأنكر عبدالله بن عمر رضي الله عنهما على معبد الجهني رأس القدرية وتبرأ منه ومن بدعته .

وأنكر الحسن البصري رحمه الله في عصر التابعين ، على واصل ابن عطاء رأس المعتزلة ، وهجره وأمر بعزله عن مجلسه .

ولما ظهر الجعد بن درهم رأس علماء الكلام وأول من قال بخلق القرآن ، أنكر عليه وهب بن منبه وغيره من الأئمة وحذروه ، فلما أصر على كفره ضحَّى به خالد بن عبدالله القسري .

وناظر الإمام الشافعي رحمه الله ، بشراً المريسي رأس الجهمية في وقته ، وكفره أكثر الأئمة ، وألف في الرد عليه الإمام عثمان الدارمي .

ولما صار للمعتزلة الجهمية صولة وسطوة في عهد المأمون الذي تبنى بدعتهم ودعا إليها وامتحن الناس عليها ، وقف الأئمة منها

موقفاً مشرفاً وعلى رأسهم إمام أهل السنة في عصره بلا منازع أحمد ابن حنبل رحمه الله ورضي عنه ، وقد ألف فيهم كتابه المشهور «الرد على الجهمية والزنادقة» .

ولم يزل دأب أئمة السلف : الرد على أهل البدع والأهواء والتصدي للمخالفين عبر تلك القرون الطويلة ، خاصة بعد حدوث النحل الخبيثة من القرامطة والباطنية والفلاسفة الملاحدة ، وهذه الفرق هي أشد نكبة نكب بها الإسلام وأهله منذ أن بعث النبي ﷺ إلى يومنا هذا ، وقد قيض الله لردها ودحرها والانتصار للسنة وأهلها ، إماماً عبقرياً من أئمة الهدى وهو شيخ الإسلام أحمد بن تيمية عليه رحمة الله فناظرهم وجادلهم وحاجّهم وألّف في الردّ عليهم وكشف زيفهم وباطلهم ، وله في الردّ على كل الفرق المخالفة والمذاهب المنحرفة ، مؤلّفات عديدة ، فكان بحق إمام أهل السنة في عصره وحامل لواء الذّبِّ عن عقيدة السلف والدّفاع عن حوزة السّنّة والوقوف في وجه كل بدعة مضلة . ولا تزال مصنفات ذلك الإمام الفذ ورسائله في كل فن ، وخاصة في تقرير مذهب السلف والرد على المخالفين ، هي المرجع الأساس لكل من جاء من بعده من علماء الأمة . ومن أجل ذلك عاداه أصحاب تلك النحل الفاسدة واجتمعوا عليه وتكالبوا ورموه عن قوس واحدة ، ولما أعجزهم في مقام الحجة والبيان والمناظرة لجأوا إلى مثل ما لجأ إليه أعداء الرسل حين تنقطع منهم الحجة ويخرسهم منطق الحق : ﴿**قالوا حرقوه وانصروا آلهتكم إن كنتم فاعلين**﴾ . وتفصيل الكلام على جهاد ذلك الإمام الهمام

وردوده ومناظراته مع المخالفين لا تكفيه هذه الأسطر ، وإنما نكتفي بالإشارة إلى بعضها ، على سبيل المثال لا الحصر : فقد رد على غلاة المتصوفة أقوالهم الكافرة كابن عربي والحلاج وابن الفارض والعفيف التلمساني ، ورد على الفلاسفة كابن سينا والفارابي ، وعلى الأشاعرة كالرازي والباقلاني وأبي حامد الغزالي وغيرهم .

وظل الجهاد ماضياً بين أهل السنة ومخالفيها ، يقوى تارة ويفتر أخرى ، إلى أن جاء عهد قويت فيه شوكة البدع وسرت في الأمة سريان النار في الهشيم ، وبلغ الجهل بالدين مبلغاً يندى له الجبين ، فعبدت أوثان المقامات والمزارات والمشاهد والأشجار والأحجار ، وذبح عندها القرابين ، وانتهكت المحارم وظهرت الفواحش والمنكرات وغدت البدعة سنة والسّنة نكرة من النكرات .

فقيض الله لهذه الأمة شيخ الإسلام الإمام المصلح الرباني ، محمد بن عبدالوهاب التميمي ، الذي جدد الله به الدين ونصر به الملة وأعلى به السنة وقمع به الباطل ودحر به البدعة ، فطفق يدعو الناس إلى عبادة الله وحده وترك الإشراك به ، ويبث فيهم مذهب السلف ، ويبيّن في مصنفاته مسائل التوحيد والشرك ، وأوذي من أجلها وامتحن حتى آزره اللّه بدولة آل سعود ، فعمت دعوته أرجاء المعمورة ، ونفع الله بها أمماً وخلائق لا يحصي عددهم إلا الخالق . واستمر الأمر على ذلكم المنوال ، والخلاف قائم بين الطائفتين ، دعاة السنة والائتلاف ودعاة البدعة والاختلاف ، والحرب بينهما سجال ،

غير أن الحق دائماً منصور ، والباطل مهزوم مدحور ﴿**والله غالب على أمره ولكن أكثر الناس لا يعلمون**﴾ .

ثم كان ممن حمل لواء البدعة في هذا الزمان وانتصر لها ونشرها بين الناس ودعا إليها وجادل عنها وماحل ، الشيخ الدكتور محمد بن علوي المالكي[1] هداه الله وأصلحه ، فأعادها جذعة وآثارها فتنة وأحياها سنة جاهلية .

ولم يقتصر الشيخ في بث بدعه ومخالفاته ونشرها من خلال تلك المجالس والمحافل التي كان يعقدها هنا وهناك ، فحسب ، بل ألف في ذلك جملة من المؤلفات أكثرها إن لم يكن كلها ، منقول من كتب أسلافه من المخالفين نقلها بعُجَرها وبُجَرها ، فغدت كتبه ومؤلفاته مجمع أخطاء وسوءات ومحفل أغلاط ومنكرات .

ومن أشنع كتبه ومؤلفاته الجامعة لكل بلية في الدين ومصيبة في الاعتقاد ، كتابا (الذخائر المحمدية) و(شفاء الفؤاد بزيارة خير العباد) ، فقد شحنها وسوَّد صحائفهما بجملة من المخالفات والدواهي العظام التي تهدم قواعد الدين بالكلية وتنقض عراه عروة عروة .

عمد إلى أصل هذا الدين ورأسه ، وهو توحيد الله بنوعيه ، الخبر والطلب ، فنقضه ودك بنيانه من أساسه ، وافترى على الله عز وجل

---

(١) يجتمع والدي مع الدكتور في الجدّ الثالث عبدالعزيز المالكي .

وعلى رسوله عليه الصلاة والسلام وعلى الملائكة الكرام الكذب وتقوّل عليهم بغير علم ولا هدى ولا كتاب منير .

واجترأ على الكتاب العزيز ، فحرّف الكلم عن مواضعه ، وعارض أخباره ، واعترض على أحكامه . وأكثر من إيراد الشبهات والنصوص المتشابهات ليزخرف بها بواطله ويزوّق بها فواقره ، فَتَرُوج على العامة والبسطاء .

ولأن الأمر فوق ما وصفت وأكبر مما ذكرت ، رأيت من الواجب المتحتم عليَّ شرعاً أن أرد عليه أخطاءه وضلالاته ، إعذاراً إلى الله تعالى ، واتقاء لسخطه وعذابه ، ولعل الله أن ينفع به الكاتب المذكور فيرجع عن خطئه ويتوب من خطيئته ، فكل بني آدم خطاء وخير الخطائين التوابون . وهذا من حق القرابة بيننا إذ يجمعنا الجدّ الثالث : عبدالعزيز المالكي رحمه الله ، وفوق ذلك حق الإسلام .

وجعلت الرد على قسمين :

القسم الأول : هو هذا الكتاب الذي بين يديك ، وقد اقتصرت فيه على ذكر أمهات الأخطاء المتعلقة بأصول الدين ، التي لا تقبل الخلاف ولا يسوغ فيها الاختلاف بين طوائف المسلمين .

وابتدأته بتمهيد ذكرت فيه نبذة عن كتابيه (الذخائر المحمدية) و(شفاء الفؤاد) وعرضت أمثلة لبعض ما أورده المؤلف فيهما من طوام ، لأعطي القارئ فكرة موجزة وتصوراً عاماً عن الكتابين قبل الشروع في الرد والتعقيب .

ثم شرعت في الرد وجعلته في مقدمة ، أوضحت فيها حقيقة الإسلام ومعنى لا إله إلا الله ، ونشأة الشرك في الأرض ، وأسبابه ووسائله المفضية إليه ، ثم اتبعتها بثلاثة أبواب :

الباب الأول : بينت فيه حقيقة ما يدعو إليه المؤلف من الدعوة إلى الشرك بنوعيه : شرك العبادة ، وشرك الربوبية .

الباب الثاني : بينت فيه افتراءه على ملائكة الرحمن ورميه إياهم بأقبح الذنوب وأكبر الكبائر .

الباب الثالث : برهنت فيه على نقضه أركان الإيمان الأربعة : الإيمان بالله وملائكته وكتابه ورسوله ﷺ .

وسيتبعه إن شاء الله القسم الثاني خصصته لكشف الشبهات التي أوردها المؤلف في كتابيه ، وهي متعلقة بخمس مسائل :

الأولى : محبة الرسول ﷺ وتعظيم قدره .

الثانية : حياته ﷺ في قبره .

الثالثة : زيارة قبره الشريف وشد الرحال إليه .

الرابعة : التوسل .

الخامسة : الشفاعة .

وقد أفردت كل مسألة في باب أوضحت فيه الحق استناداً إلى الأدلة الشرعية المحكمة من الكتاب والسنة وما كان عليه سلف هذه الأمة ، من الصحابة والتابعين ومن تبعهم من الأئمة ، ثم أتيت على

الشبهات التي أوردها المؤلف وهي عين الشبهات التي أوردها سلفه ومن على شاكلته من المخالفين ، وبينت ضعفها ووهاءها ومناقضتها لدلائل العقل والشرع .

هذا وأسأل الله العلي القدير أن ينفع به كاتبه وقارئه ، وأن يهدينا جميعاً إلى سواء السبيل ، ويرد ضال المسلمين إلى الحق رداً جميلاً ، والحمد لله أولاً وآخراً .

تمهيد

١- الذخائر المحمدية

١- تعريف :

اسم الكتاب : «الذخائر المحمدية» القسم الأول .

حجم الكتاب : يقع في ٣٥٤ صفحة من القطع الكبير .

اسم المؤلف : «محمد بن علوي بن عباس المالكي المكي الحسني» . كذا كتب على الغلاف .

طبع الكتاب : بمطبعة حسان بالقاهرة . سنة ١٩٧٨ .

موضوع الكتاب : ذكر المؤلف في مقدمته أنه مجموعة مباحث متفرقة غير مرتبة ، متعلقة بشخص النبي ﷺ .

ابتدأها بذكر نسبه الشريف وولادته وطرف من سيرته وشمائله ودلائل نبوته ، وجملة من خصائصه وختم الكتاب بوفاته ﷺ .

مصادر الكتاب : ذكر المؤلف مصادره في ثنايا الكتاب ومنها : (المواهب اللدنية بالمنح المحمدية) للقسطلاني المصري المتوفى سنة ٩٢٣هـ ، وشرحه للزرقاني المالكي المتوفى سنة١١٢٢هـ .

و (الشفا بتعريف حقوق المصطفى) للقاضي عياض اليحصبي المتوفى سنة ٥٤٤هـ .

و(الخصائص الكبرى) للسيوطي المتوفى سنة ٩١١هـ .

و(الذخائر القدسية) لعبدالحميد قدسي .

قلت : ولعله اقتبس اسم الكتاب من هذا الأخير فسماه (الذخائر المحمدية) .

الردود والتعقيبات :

* كتب في الرد على كتاب (الذخائر) الشيخ أبو بكر الجزائري المدرس بالمسجد النبوي ، جزءاً صغيراً سماه (كمال الأمة في صلاح عقيدتها) اقتصر فيه على بعض مسائل الكتاب بأسلوب سهل لطيف .

* الشيخ عبدالله المنيع ، عضو هيئة كبار العلماء وهيئة التمييز بمكة المباركة ، بكتاب (حوار مع المالكي) كشف فيه كثيراً من أخطائه وضلالاته .

* والشيخ د . سفر الحوالي [الأستاذ بجامعة أم القرى سابقاً] في عدة شرائط صوتية بعنوان (الرد على الخرافيين) تناول جذور المنهج الصوفي الذي ينتمي إليه مؤلف (الذخائر) [وطبعت في جزء بعنوان : مجدّد ملّة عمرو بن لحي] .

* والشيخ عبدالله عبدالرحمن البسام رئيس هيئة التمييز بمكة المباركة .

* والشيخ صالح عبد العزيز بن محمد آل الشيخ .

وجاءت الردود والتعقيبات على الشيخين الجزائري ، وابن منيع ، ومنها :

١- (الرد المحكم المنيع على ابن منيع) للشيخ يوسف الرفاعي .

٢- (التحذير من الاغترار بما جاء في كتاب الحوار) للشيخ عبدالكريم المغربي والشيخ عبدالحي العمراوي .

٣- (إعلام النبيل بما في شرح الجزائري من التلبيس والتضليل) للشيخ راشد المريخي .

* فتعقبهم الشيخ الجزائري في جزء لطيف سماه (وجاءوا يركضون . . . مهلاً يا دعاة الضلالة) .

٢- عرض وتحليل :

جاء في مقدمة الكتاب ما نصه « أما بعد ، فهذه مباحث لطيفة وفوائد شريفة مختلفة ومتعددة لا يجمعها باب ولا يربطها فصل ولا يتصل بعضها ببعض ، وإنما يربطها شيء واحد ذلكم أنها تتعلق بحضرة المصطفى ﷺ فهذه هي النقطة الجامعة بين مباحث هذا الكتاب .

وهو ليس جهد سنة ولا سنتين ، بل هي ثمرات مطالعات طويلة ونتائج مدارسة قديمة اشتغلت بجمعها وتقييدها منذ عرفت نفسي أن طلاب العلم الشريف غذاؤهم المطالعة بل هي روحهم وقرة أعينهم .

ومنها خواطر في تفسير بعض الحقائق النبوية أو تحليل ما قد يستشكله بعض الناس في هذا الباب وردت على قلبي معانيها فأثبتها خشية ضياعها .

وما كنت أود إظهار هذه المجموعة المباركة لأنني مشتغل بجمعها ، ولكن أشار علي من لا تسعني مخالفته بإبراز ما يمكن إبرازه ليستفيد منه من يحب ذلك»ا هـ .

قلت : قوله «ليس جهد سنة ولا سنتين ، بل هي ثمرات مطالعات طويلة . . .» إلخ ، يفيد أن ما تضمنه الكتاب من أغلاط وشناعات ليست عثرة قلم ولا زلة بنان ، وإنما هي مسائل محررة ونقول مختارة بعناية لم تسطر إلا بعد تأمل ودراسة ، ومطالعة ومدارسة ، وهذا يدل على تمام الرضا وكمال الموافقة لكل ما نقله وسطره ، خاصة وهو يسوق تلك الأقوال في معرض الرد على مخالفيه ، ثم أكد رضاه التام بكل ما نقله بما كاله من عبارات الإطراء والتفخيم والتبجيل والتعظيم لأولئك القائلين وأقوالهم .

*ومن أمثلة ذلك ما جاء في صحيفة (٤٣) تحت عنوان «حياة النبي ﷺ قال الدكتور : «كتب في هذا البحث الإمام الحافظ الفقيه ابن حجر الهيتمي قصيدة غراء ، وشرحها العلامة الشيخ محمد حبيب الله الشنقيطي شرحاً موجزاً ذكرنا أكثره بعد القصيدة» ثم نقل القصيدة وقال عقبها في صحيفة (٤٦) : «شرح هذه القصيدة العلامة الشيخ محمد حبيب الله الشنقيطي ، وقد رأيت شرحه هذا واستفدت منه الفوائد الآتية» . ثم ذكر الفوائد المستفادة من الشرح المذكور .

قلت : أفمن يمدح قائلاً بمثل هذا المديح «الإمام الحافظ الفقيه»

ويصف قصيدته بأنها «غرّاء» ألا يكون راضياً بما قال متابعاً له فيما نقل؟

ثم وصفه لشارحها بـ «العلامة» وقوله عن الشرح «واستفدت منه الفوائد الآتية» ألا يدل على معتقد بقوله راضٍ بحكمه موافق له في مذهبه؟!؟

لقد حكم الله عز وجل في كتابه على من جالس أصحاب المعاصي في حال فعلهم للمعصية بأنهم مثلهم إذا لم ينكروا عليهم أو يقوموا عنهم ، لأن ذلك دليل على رضاهم بالمعصية وقبولهم لها كما قال تعالى : ﴿**وقد نزل عليكم في الكتاب أن إذا سمعتم آيات الله يكفر بها ويستهزأ بها فلا تقعدوا معهم حتى يخوضوا في حديث غيره إنكم إذاً مثلهم إن الله جامع المنافقين والكافرين في جهنم جميعاً**﴾ (١٤٠ النساء) .

قال القرطبي رحمه الله : «فدل بهذا على وجوب اجتناب أصحاب المعاصي إذا ظهر منهم منكر ، لأن من لم يجتنبهم فقد رضي فعلهم ، والرضا بالكفر كفر . قال الله عز وجل : ﴿**إنكم إذاً مثلهم**﴾ . فكل من جلس في مجلس معصية ولم ينكر عليهم يكون معهم في الوزر سواء .

وينبغي أن ينكر عليهم إذا تكلموا بالمعصية وعملوا بها ، فإن لم يقدر على النكير عليهم فينبغي أن يقوم عنهم حتى لا يكون من أهل هذه الآية» .

ثم قال القرطبي : «وإذا ثبت تجنب أصحاب المعاصي كما بينا فتجنب أهل البدع والأهواء أولى» ا هـ (تفسير القرطبي ٥/٤١٨) .

قلت : فهذا حكم من جالسهم فقط ، فكيف بمن وافقهم وأظهر الرضا بكلامهم واحتفى به وأثنى عليه ، ثم نقله إلى الآخرين محتجاً به مجادلاً عنه منتصراً له ، ثم زاد على ذلك كله بأن خلع عليه وعلى قائليه حلل التفخيم وغلائل التقديس؟!؟

* ولننظر الآن ما جاء في تلك القصيدة «الغراء»!! كما زعم :

قال :

تواترت الأدلة والنقـــــول فما يحصي المصنف ما يقول

بأن المصطفى حي طري هلال ليس يطرقــه أفــول

إلى أن قال :

وصـــوم ثم حج كل عـــام يجوز عليه بل لا يستحيل

ويطهـــر للصـــلاة بماء غـــيب ويقضيها بذا ورد الدليل

يصلي في الضريح صلاة خمس دوامـــــاً لا يمل ولا يميل

إلى أن قال :

وبقعته التي ضمته حقاً رياض من جنان تســتطيل

كذا اللحد الذي ضم الطوايا تشــرف حين حل به النزيل

وأفضل من سموات وأرض وأمـــلاك بأفـــلاك تجـــول

ومن عرش ومن جنات عدن وفردوس بها خير جزيل

وفي القبر الشريف تراه حيّاً إلى كل البقاع له وصول
ولولا أنه حي حري بإدراك كما نقل الفحول
لما سعت الشموس إليه حقاً تسلم حين تطلع أو تزول
وما كان الحجيج إليه يسعى ويرجو أن يكون له قبول

إلى أن قال :

ويلقاهم إذا وفدوا عليه وينظرهم إذا ازدحم القفول

ثم قال :

ومن لم يعتقد هذا بطه يقيناً فهو زنديق جهول
عُبيد هيتمي مستجير بمن حطت بساحته الحمول[1]

قلت :ولست الآن بصدد التعقيب والرد على ما حوته هذه الأبيات من أغلاط شنيعة ومخالفات شرعية ، فهذا له موضع آخر سيأتي في حينه إن شاء الله تعالى :

لكن تأمل معي قول الناظم : «ومن لم يعتقد هذا بطه . . . . . يقيناً فهو زنديق جهول» ، فهو يؤكد ما ذكرته من أن المؤلف موافق لما ينقل راضٍ به غاية الرضا ، وإلا لكان داخلاً في جملة المحكوم عليهم بالجهل والزندقة (أي كفر)!

وهو بين أمرين أحلاهما مر :

---

(١) أنظر الذخائر المحمدية، ص: ٤٣-٤٥ .

إما أن يكون معتقداً بما في تلك القصيدة «الغراء»! كما وصفها ، موافقاً لناظمها «الإمام الحافظ الفقيه»! كما وصفه ، مقلداً له في كل ما ذهب إليه :

* من أن النبي ﷺ يصلي في قبره الخمس[1] متطهراً بماء الغيب ، وأنه يصوم ويحج مع المسلمين كل عام فيقف بالمشاعر ويؤدي المناسك ، ثم يستقبل حجاج قبره ويتلقاهم حين يفدون إليه ، وأن قبره أفضل من الكعبة والمسجد الحرام ومن السموات والأرض وجنة عدن بل أفضل حتى من العرش الذى استوى عليه الرحمن!

* وأن من لم يعتقد بمثل هذا الاعتقاد يقيناً من غير شك فحكمه عنده أنه كافر زنديق أي خارج عن الإسلام حلال الدم والمال!

وإما أن يكون المؤلف منكراً لما جاء في تلك الأبيات من اعتقادات باطلة ، فيكون في عداد المحكوم عليهم بذلك الحكم الجائر ، الكفر والجهل ، وعليه فكيف يسوغ له عقلاً وشرعاً أن يحتفي بها ويمتدحها وقائلها ويعظمها ويعظمه؟ إلا إذا كان راضياً بذلك الحكم مغتبطاً به والعياذ بالله!

أقول : ولا شك أن الأمر الأول هو الظاهر إذ لا يعقل أبداً أن يحكي الإنسان قولاً ويصبغه بتلك الحفاوة ويبالغ في تعظيمه وإطرائه

---

(١) لم يثبت سوى أن الأنبياء أحياء في قبورهم يصلون، دون تفصيل، والحياة في البرزخ لا يعلم كيفيتها إلاّ الله، وقال الله تعالى : ﴿ **ولا تقف ما ليس لك به علم** ﴾ [**الاسراء : ٣٦**].

ويجادل به وينافح عنه إلا وهو معتقد به كل الاعتقاد راضٍ به غاية الرضا .

* مثال آخر : في صحيفة ١٥٨ ذكر تحت عنوان «فأنت باب الله» ما نصه :«للقطب الكبير سيدنا محمد بن أبي الحسن البكري المصري ، وهي مجربة لقضاء الحوائج تقرأ في آخر الليل بعد ما تيسر من الصلاة ، يكرر بيت عجل بإذهاب الذي أشتكي ٧٣ مرة» ثم ذكر القصيدة .

قلت : ومن كانت هذه عباراته في الثناء والإطراء البالغين على القائل ، أيكون موافقاً له أم مخالفاً؟!

وقوله عن أبيات القصيدة إنها مجربة لقضاء الحوائج ، ثم وصيته بتكرير بيت منها خاصة ٧٣ مرة ، هل هذا دليل على رضاه بها واعتقاده وقبوله لها أم العكس؟

والجواب معلوم ببداهة العقول ، ولننظر الآن ماذا قال سيده «القطب الكبير»! :

ما أرسل الرحمن أو يرسل	من رحمة تصعد أو تنزل
في ملكوت الله أو ملكه	من كل ما يختص أو يشمل
إلا وطه المصطفى عبده	نبيه مختاره المرسل
واسطة فيها وأصل لها	يعلم هذا كل من يعقل
فلذ به من كل ما تشتكي	فهو شفيع دائماً يقبل

ولذ به في كل مـــا ترتجي فـــإنه المأمن والمعـــقل
وحط أحـمـال الرجـا عنده فـــــإنه المرجع والموئل
وناده إن أزمـــة أنشـــبت أظفارها واستحكم المعضل
يا أكـــرم الخلق على ربه وخير من فيهم به يسأل
قد مسني الكرب وكم مرة فرجت كرباً بعضه يذهل

إلى قوله :

عجّل بإذهاب الذي أشتكي فإن توقفت فمن ذا أسأل
فحيلتي ضاقت وصبري انقضى ولست أدري ما الذي أفعل

إلى قوله :

فـأنت باب الله أي امـرئ أتاه من غـيـرك لا يدخل

* مثال آخر : (ص٢٠١ - ٢٢٨) ذكر تحت عنوان «خلاصة مفيدة في الخصائص النبوية» ما نصه :

«اعتنى العلماء بالخصائص النبوية وألفوا فيها كثيراً من الكتب وأشهرها الخصائص الكبرى للحافظ السيوطي وقد لخصه السيوطي في رسالة موجزة ، ونحن نلتقط منه هذه الدرر مع التهذيب وجملة هذه الخصائص تنحصر في ثمانية أقسام سنذكرها بعد هذه المقدمة» .

قلت : فاختياره وتهذيبه لتلك الخصائص التي وصفها بالدرر لا يكون إلا مع تمام الموافقة وكمال الرضا والقبول .

ونسوق إليك أخي - القارئ - عدداً من تلك الخصائص المزعومة :

١- « خُصَّ رسول الله ﷺ بأنه أول النبيين خَلقاً»

٢- «وخُلق آدم وجميع المخلوقات لأجله» .

٣- «وكتابة اسمه الشريف على العرش وكل سماء والجنان وما فيها وسائر ما في الملكوت»

٤- «وذكر الملائكة له في كل ساعة» .

٥- «وبأنه سمي من أسماء الله تعالى بنحو سبعين اسماً» .

٦- «وأوتي علم كل شيء حتى الروح والخمس التي في آية ﴿**إن الله عنده علم الساعة**﴾» .

٧- «وكان يسمع حفيف أجنحة جبريل وهو بعد في سدرة المنتهى ويشم رائحته إذا توجه بالوحي إليه» .

٨- «وسأل ربه أن لا يدخل النار أحد من أهل بيته فأعطاه ذلك» .

٩- «وإذا رغب في مزوّجة وجب على زوجها طلاقها لينكحها» .

١٠- «وأن يزوج المرأة ممن شاء بغير إذنها وإذن وليها ، ويزوجها لنفسه» .

١١- «وكان يُقطع الأراضي قبل فتحها لأن الله ملّكه الأرض كلها ، وله أن يُقطع أرض الجنة من باب أولى» .

١٢- «ولايجوز التزوج على بناته ، ومنع بعض العلماء التزوج على ذرية بناته وإن سفلن إلى يوم القيامة» ، وقال «وجهه ظاهر» .

١٣- «وردّت إليه الروح بعد ما قبض ثم خير بين البقاء في الدنيا والرجوع إلى الله فاختار الرجوع إليه» .

ثم ختم الخصائص ، التي استغرقت منه ثلاثين صفحة ، بقوله «قال الإمام الشعراني رضي الله عنه : وقد كتبت هذه الخصائص من خط سيدنا وشيخنا خاتمة الحفاظ الشيخ جلال الدين السيوطي رحمه الله ونفعنا بعلمه والمسلمين» .

٢- شفاء الفؤاد

١- تعريف

اسم الكتاب : «شفاء الفؤاد بزيارة خير العباد» .

حجم الكتاب : يقع في ٢٣٧ صفحة من القطع الكبير .

اسم المؤلف : «السيد محمد بن السيد علوي بن السيد عباس المالكي الحسني» . كذا كتب على الغلاف .

طبع الكتاب : طبع على نفقة وزراة الشئون الاسلامية والأوقاف بدولة الإمارات العربية . الطبعة الأولى سنة ١٤١١هـ .

موضوع الكتاب : متعلق بزيارة القبر النبوي الشريف وآداب الزيارة ومشروعية شد الرحال إليه وأحوال الزائرين ومقاماتهم ، وذكر مجموعة من الأوراد والأذكار التي تقال عند القبر . ثم ختم الكتاب بجملة من القصائد ابتدأها من صفحة ٢٠٣ إلى نهاية الكتاب .

تقريظ الكتاب : قدم للكتاب وزير الشئون الإسلامية والأوقاف بدولة الإمارات العربية ، قرظ فيها الكتاب وأطرى مؤلفه ، ومما قاله في مقدمته : «أما بعد فهذا السفر الجليل والبحث النفيس . . . لمؤلفه الشريف العلامة الجليل سماحة الدكتور السيد محمد بن علوي . . . قد جلّى فيه وجه الصواب . . . وأوضح سبيل الرشد بالأدلة الساطعة والبراهين القاطعة بأسلوب علمي دقيق وتوفيق

رائع عميق فقضى بذلك على الشقاق والخلاف . . . وجمع بذلك كلمة المسلمين . . .» .

مصادر الكتاب : ذكر المؤلف مصادره في الكتاب وقد بلغ تعدادها ٨٦ مصدراً ، ومن أهم مصادره التي اعتمد عليها في كتابه : «شفاء الأسقام في زيارة خير الأنام» لتقي الدين السبكي المتوفى سنة ٧٥٦هـ . وقد اعتمد عليه اعتماداً كلياً ، ونقل منه أكثر مباحث الكتاب حتى المقدمة والعنوان .

واعتمد أيضاً على كتاب «الجوهر المنظم في زيارة القبر المكرم» لابن حجر الهيتمي المكي المتوفى سنة ٩٧٣هـ .

الردود والتعقيبات :

* لا أعلم أحداً من أهل العلم صنف في الرد على الكتاب سوى الشيخ د . سفر بن عبدالرحمن الحوالي الأستاذ بجامعة أم القرى سابقاً ، حيث كتب ورقات في بيان بعض الأخطاء الشنيعة التي حواها الكتاب ، وله درس مسجل في شريط صوتي ألقاه في أحد المساجد رد فيه على بعض ضلالات المؤلف وأغلاطه في مسائل الاعتقاد ، وهو رد لطيف سهل مفيد .

* وتعقب الشيخ د . سفر ، أحد تلامذة الدكتور العلوي في شريط صوتي ، لكنه لم يذكر اسمه ولا نسبه وهو إلى هذه اللحظة مجهول العين والحال .

٢- عرض وتحليل : قال المؤلف في مقدمة الكتاب : «أما بعد ، فهذه مباحث لطيفة ومسائل شريفة تدور حول زيارة أعظم خلق الله وأكرم رسل الله سيدنا محمد بن عبدالله عليه صلوات الله . نسأل الله سبحانه وتعالى أن يتقبل ذلك منا وأن يجعله خالصاً لوجهه الكريم ، إنه سميع قدير وبالإجابة جدير ، والحمد لله رب العالمين .

وكتبه : السيد محمد بن علوي بن عباس المالكي الحسني» .

قلت : وقد حوت مباحث الكتاب «اللطيفة» ومسائله «الشريفة» كسابقه جملة وافرة من الأخطاء الفادحة وأشنعها تلك المتعلقة بأصول الاعتقاد .

وما قيل في الكتاب السابق يقال في هذا ، حيث جمع المؤلف سقطات المخالفين وساقها بقلم الحفاوة والرضا ، ممجداً أصحابها ومضفياً عليهم ألقاب التعظيم والتفخيم ، ومن أمثلة ذلك :

* في صفحة (٩٧) قال : «قال محيي السنة وميت البدعة ابن الحاج في كتابه «المدخل» ، وهو معاصر لابن تيمية وتوفي بعده بسنوات ، في فصل زيارة القبور :

«وأما عظيم جناب الأنبياء والرسل صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين فيأتي عليهم الزائر ، ويتعين عليه قصدهم من الأماكن البعيدة ، فإذا جاء إليهم فليتصف بالذل والانكسار والمسكنة والفقر والفاقة والحاجة والاضطرار والخضوع وليحضر قلبه وخاطره إليهم وإلى مشاهدتهم بعين قلبه لا بعين بصره . . .» . إلى أن قال : «ثم يتوسل

إلى الله بهم في قضاء مآربه ومغفرة ذنوبه ويستغيث بهم ويطلب حوائجه منهم ويجزم بالإجابة ببركتهم ويقوي حسن ظنه في ذلك . . . فإنهم السادة الكرام ، والكرام لا يردون من سألهم ولا من توسل بهم ، ولا من قصدهم ولا من لجأ إليهم ، هذا الكلام في زيارة الأنبياء والمرسلين عموماً .

قال رضي الله عنه : فصل ، وأما في زيارة سيد الأولين والآخرين صلوات الله عليه وسلامه ، فكل ما ذكر يزيد أضعافه ، أعني في الإنكسار والذلة والمسكنة . .» إلى أن قال : «فمن توسل به أو استغاث به أو طلب حوائجه منه فلا يرد ولا يخيب لما شهدت به المعاينة والآثار» ثم قال : «إن الزائر يشعر نفسه بأنه واقف بين يديه عليه الصلاة والسلام كما هو في حياته إذ لا فرق بين موته وحياته ، أعني في مشاهدته لأمته ومعرفة أحوالهم ونياتهم وعزائمهم وخواطرهم وذلك عنده جلي لا خفاء فيه . . .» ا هـ .

* وفي صفحة (١٢٠) قال : «ذكر الإمام العارف بالله الشيخ أحمد بن محمد القشاشي صيغة زيارة تقال عند المواجهة الشريفة : السلام عليك أيها النبي ورحمة الله وبركاته ، وتستشعر جوابه ﷺ لك عند ذلك ولو بالغيب ، فالإيمان بالغيب حصول على المغيب بالغيب يقيناً وتقول : السلام عليك يا أول ، السلام عليك يا آخر ، السلام عليك يا باطن ، السلام عليك يا ظاهر . .» إلى أن قال : «ويقال : إن ذلك من تحية جبريل للنبي ﷺ » اهـ .

* وفي صفحة (١٣١) تحت عنوان «حقيقة الزيارة وتعريفها» قال ما نصه : «قال الإمام العارف بالله الشيخ أحمد المعروف بالقشاشي : الزيارة الحقيقية مضبوطة شرعاً بالقصد له في مسجده ومدينته والوقوف عنده والسلام عليه والتوسل به في تحقيق وجود الشفاعة له» . إلى أن قال : «فقرى الواقف ببابه الشريف كقرى الواقف بعرفات : الشفاعة والبشرى بالموت على الإسلام . . فقد أتم الله للحبيب المضاهاة بكل الحالات» . انتهى نقله باختصار .

* ثم عقد المؤلف فصلاً خاصاً سماه «الزيارة النبوية والشعر» ابتدأه من صفحة ٢٠١ إلى صفحة ٢٣٧ وأنهى به الكتاب .

قال في أوله : «وسنذكر في هذا المبحث جملة من غرر القصائد النبوية والمدائح المحمدية التي يستحسن أن تقال أمام المواجهة النبوية وفي حضرة الزيارة المحمدية حيث اشتملت على خطابه ﷺ بأجمل أنواع الخطاب وأبلغ أساليب السلام . . .» .

قلت : ثم ساق القصائد المذكورة ودبجها بعبارات المديح والثناء والإطراء ، ومن أمثلتها :

القصيدة الأولى : «قصيدة الحجرة النبوية الشريفة» قال المخالف : (انظر ص٣٨) ، أنشأ هذه اليتيمة العصماء السلطان عبدالحميد خان . . . واستحقت بإخلاص ناظمها وحبه الصادق لسيدنا رسول الله ﷺ أن تنقش على الحجرة النبوية الشريفة ، ومما جاء فيها :

يا سيدي يا رسول الله خذ بيدي ... ما لي سواك ولا ألوى على أحد
فأنت نور الهدى في كل كائنة ... وأنت سر الندى يا خير معتمد
وأنت حقاً غياث الخلق أجمعهم ... وأنت هادي الورى لله ذي المدد
إني إذا سامني ضيم يروعني ... أقول يا سيد السادات يا سندي
وانظر بعين الرضا لي دائماً أبداً ... واستر بفضلك تقصيري مدى الأمد
واعطف علي بعفو منك يشملني ... فإنني عنك يا مولاي لم أحد
إني توسلت بالمختار أشرف من ... رقى السموات سر الواحد الأحد
رب الجمال تعالى الله خالقه ... فمثله في جميع الخلق لم أجد

(شفاء الفؤاد ص٢٠٣)

* **القصيدة الثانية** : «القصيدة الوترية البغدادية» . قال عنها المخالف : «هذه القصيدة العصماء هي إحدى القصائد الوترية في مدح خير البرية ﷺ للإمام الفاضل الأديب الكامل الواعظ الصالح الزاهد أبي عبدالله مجدالدين» .

إلى أن قال : «وقد حظيت أن ينقش أكثرها أمام المواجهة النبوية الشريفة» ، وجاء فيها :

بنور رسول الله أشرقت الدنا ... ففي نوره كل يجيء ويذهب
براه جلال الحق للخلق رحمة ... فكل الورى في بره يتقلب
بعزته سدنا على كل أمة ... وملتنا فيها النبيون ترغب
بذلي بإفلاسي بفقري بفاقتي ... إليك رسول الله أصبحت أهرب
بجاهك أدركني إذا حوسب الورى ... فإني عليكم ذلك اليوم أحسب

(شفاء الفؤاد ص٢٠٥)

* **القصيدة الثالثة** : «القصيدة الحدادية الداخلية» قال المخالف : «هذه القصيدة العصماء للإمام شيخ الإسلام قطب الدعوة والإرشاد الولي الكبير العارف بالله تعالى الشهير السيد الحسيب النسيب الشيخ عبدالله بن علوي الحداد . . . رضي الله تعالى عنه» .

إلى أن قال : «وقد حظيت أن تنقش داخل الحجرة النبوية الشريفة لإخلاص ناظمها وحبه الأكيد ، وجاء فيها :

نزلنا بخير العالمين محمد ... نبي الهدى بحر الندى سيد العرب
ملاذ البرايا غوث كل مؤمل ... كريم السجايا طيب الجسم والقلب
كريم حليم شأنه الجود والوفا ... يرجّى لكشف الضر والبؤس والكرب
وقفنا على أعتاب فضلك سيدي ... لتقبيل ترب حبذا لك من ترب
توجه رسول الله في كل حاجة ... لنا ومهمّ في المعاش وفي القلب
عليك سلام الله ما سار مخلص ... إليك يقول : الله والمصطفى حسبي
عليك سلام الله أنت ملاذنا ... لدى اليسر والإعسار والسهل والصعب(١)

* **القصيدة الخامسة** : قال المخالف إنها للإمام العارف بالله عبدالرحيم البرعي ، وجاء فيها :

---

(١) شفاء الفؤاد صفحة : ٢٠٧-٢٠٩ .

يا صاحب القبر المنير بيثرب ... يا منتهى أملي وغاية مطلبي
يا من نرجيه لكشف عظيمة ... ولحل عقد ملتو متعصب
يا من يجود على الوجود بأنعم ... خضر تعم عموم صوب الصيِّب
يا غوث من في الخافقين وغيثهم ... وربيعهم في كل عام مجدب
يا رحمة الدنيا وعصمة أهلها ... وأمان كل مشرّق ومغرّب
يا من نناديه فيسمعنا على ... بعد المسافة سمع أقرب أقرب
يا سيدي إني رجوتك ناصراً ... من جور دهر خائن متقلب
فأقل عثار عُبيدك الداعي الذي ... يرجوك إذ راجيك غير مخيب
واكتب له ولوالديه براءة ... من حر نار جهنم المتلهب
واقمع بحولك باغضيه وكل من ... يؤذيه من متمرد متعصب
واشفع له ولمن يليه وقم بهم ... في كل حال يا شفيع المذنب
وعليك صلى ذو الجلال أتم ما ... صلى وسلم يا رفيع المنصب[1]

* **القصيدة العاشرة** : قال المخالف إنها للإمام عبدالله بن علوي الحداد ، وجاء فيها :

وقفنا وسلمنا على خير مرسل ... وخير نبي ما له من مناظر
فرد علينا وهو حي وحاضر ... فشرّف من حي كريم وحاضر

---

(١) شفاء الفؤاد صفحة : ٢١٢-٢١٣ .

هو الساس وهو الرأس للأمر كله بأولهم يدعى لذاك وآخر
ألَا يا رسول الله عطفاً ورحمة لمسترحم مستنظر للمبارر
ألا يا حبيب الله غوثاً وغارة لذي كربة مسودة كالدياجر
ألا يا أمين الله أمناً لخائف أتى هارباً من ذنبه المتكاثر
ألا يا صفي الله قم بي فإنني بكم وإليكم يا شريف العناصر
ويا غوث كل المسلمين وغيثهم وعصمتهم من كل خوف وضائر

(شفاء الفؤاد ص٢٢٠)

* **القصيدة الرابعة عشرة** : قال المخالف إنها للشيخ جمال الدين يحيى الصرصري ، جاء فيها :

جئناك نطوي القفار الشاسعات على عيس لهن بنا وخدٌ وإرقال
. فاعطف على وفدك الراجين فضلك يا من عنده للعطاء الغمر إجزال
وها عُبيدك يحيى قد أتاك على علاته فله تزكو بك الحال
مستسلماً خاضعاً مستأنساً وجلاً مما يزخرف حاوي المكر محتال
فاسأل لي الله أن أحيا على سنن سننتها فبها قد ينعم البال

(شفاء الفؤاد ص٢٢٧)

* **القصيدة السادسة عشرة** : «زيارة حبشية» قال المخالف إنها للإمام العارف بالله الحبيب علي بن محمد الحبشي رضي الله عنه ، وجاء فيها :

يا مـــلاذ الكل يا أهل الندى ... يا كـريم الأصل يا رب الحـور
يا غياث الخلق يا ذا الفضل والجود ... والإحـــســـان في بحـــر وبر
يا لجـا اللاجين يا خـيـر نبي ... ورسـول جـاء حـقـاً بالسـور
أنت باب الله لا يقصده الشخص ... إلاّ فـــاز حـــقـــاً بالوطر
يا رسـول الله غـوثاً عـاجـلاً ... يـدفع البلواء عنا والأشـــر
يا رسـول الله عـجّل سـيـدي ... بزوال البـــؤس عنا والضـــرر
قـد لجـونا نحو بابك سـيـدي ... ووقـفنا ننتظر منك الخـبـر
وارحم الأمـة جـمـعـاً إنهم ... لـم يزالوا في عـنـاء وكـــدر
وارحـــهم من عـنا هذا الوبا ... واطلب الرحمن يسقيهم مطر
فـبحق الطهر طهر سـيـدي ... لجميع الأرض من هذا الضرر
وبحق الحـــسـنين ارفع لما ... قد عرى وارحم فقد زاد الحذر

(شفاء الفؤاد ص٢٣٠)

* **القصيدة الثامنة عشرة** : قال المخالف إنها للسيد محمد أمين كتبي ، وجاء فيها :

مالي من الأعمال ما أرجو به ... فـوزاً ولكن في نداك رجـائي
فـــامنن علي بنظرة وبتـــوبة ... وصـيـانة وسـلامـة وشـفـاء
واشفع لدى المولى الكريم تفضلاً ... لأكون صاحب صفحة بيضاء
فلأنت في الدنيا وفي الأخرى وفي ... كل المواطن عـــدتي وندائي

فـامنن علينا بالزيارة عـاجـلاً في صـحـة وسـلامـة وهناء
حسبي بجاهك مأمناً ومثابةً وببحر جودك مورد استغنائي[1]

* **القصيدة التاسعة عشرة** : قال المخالف إنها «للإمام العارف بالله السيد محمد أمين كتبي» ، جاء فيها :

كلمـا لحت للمـلائك خـروا في السـموات سـجـداً وبكيـاً
ومـددت الأكـوان شـرقاً وغـرباً مـدداً في كـيـانهـا كليـاً[2]

* * * *

٣ـ الخلاصة

وبعد ، فلعل فيما تقدم من عرض وتحليل لجمل ما في الكتابين : «الذخائر» و «شفاء الفؤاد» ، كفاية في الدلالة على بقية محتوياتهما ، وبيان حقيقة منهج المؤلف وطريقته ونحلته التي يدعو إليها ، وهي كما رأيت ليست أخطاءً هينة ولا مخالفات يسيرة مما يسوغ فيه الاجتهاد ويقبل الخلاف تبعاً لدلالات النصوص وتباين المدارك والفهوم بل هي أغلاط منكرة وعقائد زائغة وضلالات جسيمة تخالف شريعة الإسلام بالكلية وتناقض أسسه وقواعده وأصوله .

هذا وما نقلته لك إنما هو غيض من فيض متراكم ونقطة من بحر

(١) شفا الفؤاد، ص ٢٣٤ .

(٢) شفاء الفؤاد، ص: ٢٣٥ .

متلاطم ، والأمر - والله - أعظم مما وصفت وأكبر مما رأيت ، ولو رمت سرد كل مغالطات المؤلف وسقطاته ، مجرد سرد ، دون تعقيب ، لأفضى إلى التطويل المفضي إلى الإملال ، إذ لم تكد تخلو صفحة مما كتب من خطأ واضح جلي في مسائل التوحيد وقضايا الاعتقاد .

* لقد مر بك قوله[1] : «ما أرسل الرحمن أو يرسل ، من رحمة تصعد أو تنزل . . . إلا وطه المصطفى عبده . . . واسطة فيها وأصل لها» ، وهذه منازعة للرب عز وجل في صفة الرحمة .

* وقوله عن النبي ﷺ : إذ لا فرق بين حياته وموته . . . في مشاهدته لأمته ومعرفة أحوالهم ونياتهم وعزائمهم وخواطرهم» ، وهذه منازعة للرب سبحانه في صفة الإحاطة والعلم بما في الصدور .

---

(١) لعل معترضاً يقول هذه الأخطاء المذكورة إنما نقلها المؤلف عن غيره، ليست هي من قوله، فكيف تنسبها إليه؟ .

فالجواب أن يقال: نعم. أكثر الأخطاء الواردة في كتابيه من إنشاء غيره، لكن المؤلف ساقها راضٍ بها، محتجاً بها، منتصراً لها، معظماً لقائليها، ومجادلاً خصومه بها، وليس هو مجرد ناقل لها فحسب، كما تقدم تقرير ذلك والتدليل عليه، فمن ثم يصح أن تنسب إليه على وجه الإلزام من غير أن ينقص من أوزار قائليها شيئاً .

ثم إن هذا الأمر لن يغضب المؤلف، كما يظن المعترض، بل هو يفرحه كثيراً، وإلاّ لما كانت تلك الحفاوة البالغة لهاتيك المنكرات ولأصحابها، كما مر معنا عند عرض الأمثلة، وإنما يغضب لذلك من ينكرها ويتبرأ منها ومنهم، والله تعالى أعلم .

* وقوله أيضاً : «يا من نناديه فيسمعنا على بعد المسافة سمع أقرب أقرب» ، وهذه منازعة للرب جل وعلا في صفتي السمع والقرب .

* وقوله كذلك إنه «سمي من أسماء الله تعالى بنحو سبعين إسماً» بل ذهب أبعد من ذلك فزعم أن له ﷺ كل أسماء الله الحسنى[1] ، فلم يُبق لله اسماً يختص به .

* وسمعت قوله « يا سيدي يا رسول الله خذ بيدي ، مالي سواك ولا ألوي على أحد» وقوله أيضاً : «عجل بإذهاب الذي اشتكي فإن توقفت فمن ذا أسأل؟» وهذه استعانة بغير الله فيما لا يقدر عليه إلا الله .

* ولما كانت الصفة الغالبة على المؤلف في اختياره ونقله وتقريره واجتراره لمسائل الكتابين هي مخالفة النص الصريح من القرآن والسنة وإجماع السلف ، مع الإصرار على تلك المخالفة والتأكيد على الإصرار فقد أطلقت عليه اسم «المخالف» ، وهو أقل وصف يستحقه بعد الذي رأيته من سوء صنيعه .

* ولا أدل على إصراره على المخالفة وتشبثه بها وعضه عليها ، من تكراره للأخطاء الشنيعة والطامات الموبقة التي أكثر منها في كتابه الأول «الذخائر» ، وإعادتها بمثلها وأعظم منها وأشنع في كتابه الأخير «شفاء الفؤاد» ، مع طول الفترة بين التأليفين بما زاد على عشر سنين .

---

(١) انظر شفاء الفؤاد ص: ١٢٦ .

* ثم إنه نوقش بما في كتابه الأول ، ورُدَّ عليه وبُين له وجه الخطأ وعُقد له مجلس مشهود مع بعض أهل العلم ، وكان الظن به وبمن هو في منزلته وعلمه أن يتوب ويرجع ، ولو فعل لكان خيراً له وللناس وأقوم ، لكنه - هداه الله - أصر واستكبر وأعاد الكرة في الكتاب الآخر بأسلوب أصرح وأوضح من ذي قبل ، فاستبدل الذي هو أدنى بالذي هو خير .

* ولا ينقضي عجبي من أولئك الذين عرفوا حقيقة هذا «المخالف» وظهر لهم إصراره على المخالفة ثم يتهالكون في الدفاع عنه وتكلف الأعذار له ، ولو على حساب الدين والعقيدة والإيمان!

أقول لهم : ما رأيكم بمن يقول : إن رسول الله ﷺ أوتي علم الغيب ومفاتحه الخمس وعلم الروح ، وإنه يملك حق الإقطاع في الجنة لمن شاء ، وإن أسماءه مطابقة لأسماء الله الحسنى ، وإنه المنعم على كل الوجود ، الممد بالخير والبر لكل موجود ، ملجأ اللاجئين ، وغياث المستغيثين ، غافر الذنب وقابل التوب ، الذي من أجله خُلقَ الكون وله يسجد من في السموات ومن في الأرض ، وقبره خير من الجنة والعرش . . . وهلم جرا؟!

وأنا أقول لهؤلاء المتكلفين : إربعوا على أنفسكم وأريحوها من هذا التكلف العسير ، فالرجل لم يتبرأ مما كتب ولم يعتذر مما سطر بل هو مصر غاية الإصرار ، وإن كنتم في ريب مما أقول فاسألوه يخبركم الخبر اليقين .

واضرب لهم مثلاً على ذلك ، مسألة الاحتفال بذكرى المولد

النبوي ، التي دأبوا على إثارتها وإكثار الجدال فيها ليوهموا من لا دراية له بحقيقة الأمر أنها أكبر ما يؤخذ على هذا المخالف وينكر . وليس الأمر كما زعموا ، فالأمر أعظم من ذلك وأخطر .

فإن قيل : فما قولكم في «المولد»؟

فالجواب : إن ذلك يحتاج إلى تفصيل ، لا تحتمله هذه الورقات ، وليس هو موضوع هذا الكتاب ، ولكن يمكن أن ألخص الكلام فيه في هذه النقاط الخمس :

١- المولد النبوي نفسه ، بمعنى وقت ولادته ، اختلف في تحديد يومه وشهره بين علماء المسلمين ممن كتب في السير والملاحم والتاريخ ، مع اتفاقهم على أنه يوم الإثنين كما ورد بذلك الخبر الصادق عن النبي ﷺ .

٢- ومن دوَّن فيه وكتب من أهل العلم ، فلكونه من أحداث السيرة النبوية ، فيذكرون الإرهاصات السابقة لمولده ﷺ ثم مولده ونشأته وحياته قبل البعثة وبعدها إلى يوم وفاته .

٣- ومعلوم أن حياة النبي ﷺ امتدت ثلاثة وستين عاماً ، منها أربعون قبل البعثة وثلاثة وعشرون بعدها ، فكل يوم فيها هو يوم من حياته الشريفة المباركة ولا يقل شرفاً ولا أهمية عن يوم ولادته بل قد يفضل عليه ، وبخاصة يوم بعثته مثلاً .

٤- والاحتفال بمولده بمعنى إحياء ذكرى ذلك اليوم واتخاذه عيداً

يتكرر على الدوام ، لم يفعله رسول الله ﷺ نفسه ولم يرغّب فيه حتى مات ﷺ ، ولم يفعله صحابته الكرام ولا أزواجه ولا أهل بيته ولا التابعون ولا أتباعهم ولا الأئمة الأعلام في القرون المفضّلة .

٥- حتى إذا حدث النقص في الأمة في القرون التالية للقرون الفاضلة وتقلد زمام الأمر فيها فرقة باطنية ضالة ، أظهرت التشيع وصارت لها دولة ، هي الدولة العُبيدية ، وهي المسماة بالدولة الفاطمية ، فأحدثت الاحتفال بذكرى المولد النبوي [في القرن الرابع الهجري ، وما كان لها من سلف في ذلك إلا احتفال النصارى بميلاد عيسى عليه السلام] .

فتأمل - رحمك الله - هل يمكن أن يهمل خير هذه الأمة وأبرها قلوباً وأعمقها علماً وأقلها تكلفاً أمراً من أمور التعبّد لله تعالى جيلاً بعد جيل ، ثم يهتدي إليه ويسبقهم إليه أصحاب تلك النحلة الخبيثة الباطنية؟

وعلى كل حال ، فإن قضية «المولد» - بمعنى الاحتفال بذكرى مولد الرسول ﷺ ونحوه ، من المبتدعات - ليست أصل النزاع بين «المخالف» وبين خصومه من أهل العلم ممن أنكر عليه ، كما زعم أولئك المتكلفون ، وإن كانت محل خلاف بين الفريقين ، وإنما أصل النزاع التقرب إلى الله بالبدع الشركية فما دونها ، مما يوجب على المسلمين جميعاً أن يهتموا لهذا الأمر العظيم وأن ينصروا الحق ويعلوا رايته ويوالوا أهله ، وأن يقمعوا الباطل ، ويعادوا أهله ، ويتبرؤا منهم ، عملاً بقول الله عز وجل : ﴿يا أيها

الذين آمنوا إن تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم﴾ . وإذعاناً لأمره ونهيه إذ قال تعالى : **﴿وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الإثم والعدوان﴾** ، وقال تعالى : **﴿والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر﴾** .

ووقوفاً عند حده في قوله : **﴿لا تجد قوماً يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادون من حاد الله ورسوله ولو كانوا آباءهم أو أبناءهم أو إخوانهم أو عشيرتهم أولئك كتب في قلوبهم الإيمان وأيدهم بروح منه ويدخلهم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها رضي الله عنهم ورضوا عنه أولئك حزب الله ألا إن حزب الله هم المفلحون﴾** . فأقل الواجب وأضعف الإيمان ، أن يتبرأ المؤمنون من هؤلاء المخالفين وأضرابهم وأن يبرؤا إلى الله من أقوالهم وأفعالهم وبدعهم ومنكراتهم .

وثمة واجب آخر فرضه الله عز وجل على طائفة من عباده المؤمنين ، لا يسعهم التنصل منه ، وهو النصيحة في الدين ، وجهاد المخالفين ، وفاءً بعهد الله وميثاق الكتاب المبين .

قال الله تعالى : **﴿وإذ أخذ الله ميثاق الذين أوتوا الكتاب لتبيننه للناس ولا تكتمونه﴾** ، وقال تعالى : **﴿إن الذين يكتمون ما أنزلنا من البينات والهدى من بعد ما بيناه للناس في الكتاب أولئك يلعنهم الله ويلعنهم اللاعنون﴾** .

ومن أجل ذلك كتبت هذا الرد ، والله المستعان وعليه التكلان .

(المقدمة)

﴿اعبدوا الله ما لكم من إله غيره﴾

اعلم - رحمك الله - أن حقيقة دعوة الرسل ومبناها وأُسَّها على توحيد الله عز وجل وإفراده بالعبادة وإخلاصها له وعدم إشراك شيء معه ، أياً كان هذا الشيء ، ملكاً مقرباً أو نبياً مرسلاً أو حجراً أو شجراً أو غير ذلك من الأوثان والأنداد والأصنام .

ولم يخلق الله الخلق ولا بعث إليهم الرسل إلا لهذه الغاية العظمى ، عبادة الله وحده لا شريك له . قال تعالى : ﴿**وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون**﴾ أي ليوحدوني ، تفسير القرطبي (٥٦/١٧) .

وقال : ﴿**ولقد بعثنا في كل أمة رسولاً أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت**﴾ .

وقال عز وجل : ﴿**ولقد أرسلنا نوحاً إلى قومه فقال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره**﴾ .

وهذه دعوة أول رسول بعد حدوث الشرك ، ولم تزل كذلك دعوة من بعده ، هود وصالح وشعيب عليهم السلام : ﴿**اعبدوا الله ما لكم من إله غيره**﴾ .

وهذه الدعوة هي حقيقة معنى لا إله إلا الله ، فإن الإله هو المألوه المعبود بالمحبة والخشية والإجلال والتعظيم وسائر أنواع العبادات القولية

والعملية ، ويدل على ذلك قوله تعالى : ﴿**وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحي إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون**﴾ .

وكذلك كانت دعوة خاتم الرسل ﷺ لقومه وللناس كافة ، أمرهم بتوحيد الله وقول لا إله إلا الله فأبوا عليه إلا قليلاً ممن آمن ، وكان يرسل إلى الملوك يدعوهم إلى التوحيد ، كما جاء في رسالته إلى هرقل : «و﴿**يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم أن لا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئاً ولا يتخذ بعضنا بعضاً أرباباً من دون الله**﴾» متفق عليه .

ولما أراد أن يبعث معاذاً إلى اليمن قال له : «إنك تأتي قوماً أهل كتاب فليكن أول ما تدعوهم إليه شهادة أن لا إله إلا الله وأني رسول الله» ، وفي لفظ : « إلى عبادة الله» وفي لفظ : إلى أن يوحدوا الله» متفق عليه .

فدلت هذه النصوص وغيرها على أن عبادة الله وحده وعدم الإشراك به هو أصل الدين وهو معنى لا إله إلا الله ، وهو ما يسميه العلماء توحيد الإلهية ، وتوحيد العبادة ، ولم تخل شريعة من شرائع الرسل من هذه الدعوة لأنها هي الإسلام الذي لا يرضى الله عز وجل ديناً غيره كما قال : ﴿**إن الدين عند الله الإسلام**﴾ وقال تعالى : ﴿**ومن يبتغ غير الإسلام ديناً فلن يقبل منه وهو في الآخرة ممن الخاسرين**﴾ وقال تعالى : ﴿**وما أمروا إلا ليعبدوا إلهاً واحداً**﴾ .

ولقد فهم المشركون الذين بعث فيهم النبي ﷺ معنى كلمة

التوحيد لما دعاهم إليها فقالوا كما حكى القرآن عنهم : ﴿**أجعل الآلهة إلهاً واحداً إن هذا لشيء عجاب**﴾ .

فهموا أن معناها ترك الآلهة والأنداد وما يتبع ذلك من أمور الجاهلية ، وتوحيد الخالق بالعبادة ، التي تستلزم كمال الخضوع له والانقياد ، المستلزم زوال طاغوت الجاهلية .

إذ العبادة (هي الطاعة والخضوع) ، يقال : طريق معبد إذا كان مذللاً بكثرة الوطء .والتعبد هو التنسك ، والعبودية هي الخضوع والتذلل . وقال الله تعالى : ﴿**إياك نعبد**﴾ أي : إياك نوحد .

والعابد هو الخاضع المستسلم المنقاد لأمر المعبود . (لسان العرب ٣/٢٧٠-٢٧٤) .

وتأتي العبادة أيضاً بمعنى الدعاء والطلب كما في قوله تعالى : ﴿**وقال ربكم ادعوني أستجب لكم إن الذين يستكبرون عن عبادتي سيدخلون جهنم داخرين**﴾ ، وقوله تعالى : ﴿**وأعتزلكم وما تدعون من دون الله وأدعو ربي عسى أن لا أكون بدعاء ربي شقيا فلما اعتزلهم وما يعبدون من دون الله . .**﴾ .

وقد تكرر ذكر العبادة في القرآن بمعنى الدعاء والقصد والطلب ، إذ كانت هذه أكثر عبادة المشركين في كل أمة لأصنامهم وأندادهم ومعبوداتهم .

قال تعالى : ﴿**والذين اتخذوا من دونه أولياء ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى**﴾ .

وقال تعالى : ﴿**ويعبدون من دون الله ما لا يضرهم ولا ينفعهم ويقولون هؤلاء شفعاؤنا عند الله**﴾ .

وقال عز وجل : ﴿ **ويعبدون من دون الله ما لا ينفعهم ولا يضرهم وكان الكافر على ربه ظهيراً**﴾ .

وقال سبحانه مخاطباً عبده ورسوله محمداً ﷺ : ﴿**قل إني نهيت أن أعبد الذين تدعون من دون الله لما جاءني البينات من ربي وأمرت أن أسلم لرب العالمين**﴾ .

وقد صح من حديث النعمان بن بشير رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال : «الدعاء هو العبادة» ثم قرأ قوله تعالى : ﴿**وقال ربكم ادعوني أستجب لكم . . .**﴾ الآية ، رواه أبو داود (١٤٧٩) والترمذي (٢٩٧٣) .

ولقد كان أكثر عبادة المشركين الأولين لأصنامهم وأندادهم وأوثانهم بدعائهم وسؤالهم من دون الله ، وهم مع ذلك كانوا يعبدون الله ويدعونه ويلجأون إليه ، فجمعوا بين الإيمان به والشرك معه ، كما قال تعالى عنهم : ﴿**وما يؤمن أكثرهم بالله إلا وهم مشركون**﴾ ، وقال تعالى : ﴿**فإذا ركبوا في الفلك دعوا الله مخلصين له الدّين فلما نجّاهم إلى البرّ إذا هم يشركون**﴾ .

﴿ولئن سألتهم من خلقهم ليقولن الله﴾

ثم اعلم - رحمك الله - أن المشركين الذين بعث فيهم رسول الله ﷺ كانوا مقرين بوجود الله وبربوبيته وتصرفه وتدبيره للأمور، وأنه الخالق الرازق المحيي المميت، وأن آلهتهم التي يعبدونها لا تفعل شيئاً من ذلك وإنما يدعونها ويلجأون إليها لتشفع لهم عند الله، ويجعلونها بمثابة الوسطاء عند الملك يرفعون إليه حاجة من توسل بهم، ويزعمون أن الله لا يستجيب لهم حتى يشفع هؤلاء الوجهاء المقربون.

* **ومن الأدلة على ذلك:**

قوله تعالى: **﴿قل من يرزقكم من السماء والأرض أمن يملك السمع والأبصار ومن يخرج الحي من الميت ويخرج الميت من الحي ومن يدبر الأمر فسيقولون الله فقل أفلا تتقون﴾**.

وقوله: **﴿قل لمن الأرض ومن فيها إن كنتم تعلمون. سيقولون لله قل أفلا تذكرون﴾**.

﴿قل من رب السموات السبع ورب العرش العظيم. سيقولون لله قل أفلا تتقون﴾.

﴿قل من بيده ملكوت كل شيء وهو يجير ولا يجار عليه إن كنتم تعلمون. سيقولون لله قل فأنى تسحرون﴾.

* وأما اتخاذهم آلهتهم ومعبوداتهم شفعاء ووسطاء فيدل عليه

قوله تعالى : ﴿**ويعبدون من دون الله ما لا يضرهم ولا ينفعهم ويقولون هؤلاء شفعاؤنا عند الله قل أتنبئون الله بما لا يعلم في السموات ولا في الأرض سبحانه وتعالى عما يشركون**﴾ .

وقال سبحانه وتعالى : ﴿**أم اتخذوا من دون الله شفعاء قل أولو كانوا لا يملكون شيئاً ولا يعقلون . قل لله الشفاعة جميعاً له ملك السموات والأرض ثم إليه ترجعون**﴾ .

ففي الآية الأولى أخبر سبحانه عنهم أن سبب عبادتهم آلهتهم هو اتخاذهم إياهم شفعاء ، وسماه عز وجل شركاً فقال : ﴿**سبحانه وتعالى عما يشركون**﴾ .

وفي الآية الثانية تأكيد للأولى ، وبيان آخر وهو أن الشفاعة كلها لله لا لأحد من الخلق ، وإنما هي ملك له وحده يأذن لمن يشاء فيمن يشاء ، بخلاف شفاعة الخلق لبعضهم عند بعض كشفاعة الوجهاء عند الرؤساء فهذه شفاعة تليق بحال المخلوقين من الضعف والعجز والقلة والذلة ، كما أن شفاعة الخالق سبحانه تليق بجلاله وعظمته وكمال سلطانه وعزته وغناه عن خلقه ، ومن سوَّى بين الشفاعتين فقد غلط غلطاً بيناً وافترى إثماً عظيماً .

﴿وقالوا لا تذرن آلهتكم﴾

ذكر ابن عباس رضي الله عنهما في تفسير هذه الآية ﴿**وقالوا لا تذرن آلهتكم ولا تذرن وداً ولا سواعاً ولا يغوث ويعوق ونسرا**﴾ أنها «أسماء رجال صالحين من قوم نوح ، فلما هلكوا أوحى الشيطان إلى قومهم أن انصبوا إلى مجالسهم التي كانوا يجلسون أنصاباً وسموها بأسمائهم ففعلوا فلم تعبد ، حتى إذا هلك أولئك وتنسَّخ العلم عبدت»[1] .

قال السهيلي : «كانوا يتبركون بدعائهم كلما مات منهم أحد مثلوا صورته وتمسحوا بها إلى زمن مهلائيل فعبدوها بتدريج الشيطان لهم ، ثم صارت سنة في العرب في الجاهلية ، ولا أدري من أين سرت لهم تلك الأسماء؟ من قبل الهند؟ فقد قيل إنهم كانوا المبدأ في عبادة الأصنام بعد نوح ، أم الشيطان ألهم العرب ذلك؟» إنتهى نقله من فتح الباري ، قال الحافظ : وقد أخرج الفاكهي من طريق ابن الكلبي قال : «كان لعمرو بن ربيعة رئي من الجن فأتاه فقال : أجب أبا ثمامة ، وادخل بلا ملامة ثم ائت سِيْف جدة ، تجد بها أصناماً معدة ، ثم أوردها تهامة ولا تهب ، ثم ادع العرب إلى عبادتها تجب . قال فأتى عمرو ساحل جدة فوجد بها وداً وسواعاً ويغوث ويعوق ونسراً ، وهي الأصنام التي عبدت على عهد نوح وإدريس ، ثم إن الطوفان طرحها هناك فسفى عليها الرمل

---

(١) انظر صحيح البخاري، ٨ :٦٦٧ .

فاستثارها عمرو وخرج بها إلى تهامة وحضر الموسم فدعا إلى عبادتها فأجيب»[1] ا هـ . وذكر الحافظ أن عَمْراً هذا هو عمرو بن لحي .

قلت : وثبت في الصحيح عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : «رأيت عمرو بن عامر الخزاعي يجر قصبه في النار وكان أول من سيب السوائب» وفي لفظ «رأيت عمرو بن لحي»[2] .

قال الحافظ في الفتح «وأورده ابن اسحق في «السيرة الكبرى» عن محمد بن إبراهيم التيمي عن أبي صالح أتم من هذا ولفظه : [سمعت رسول الله ﷺ يقول لأكثم بن الجون : «رأيت عمرو بن لحي يجر قصبه في النار لأنه أول من غير دين إسماعيل ، فنصب الأوثان وسيب السائبة وبحر البحيرة ووصل الوصيلة وحمى الحامي]»[3] .

ثم قال الحافظ : «وذكر ابن اسحق أن سبب عبادة عمرو بن لحي الأصنام أنه خرج إلى الشام وبها يومئذ العماليق وهم يعبدون الأصنام فاستوهبهم واحداً منها وجاء به إلى مكة فنصبه إلى الكعبة وهو هبل ، وكان قبل ذلك في زمن جُرْهم قد فجر رجل يقال له إساف بامرأة يقال لها نائلة في الكعبة فمسخهما الله جل وعلا حجرين فأخذهما عمرو بن لحي فنصبهما حول الكعبة فصار من يطوف يتسمح بهما يبدأ

---

(١) الفتح : ٨ / ٦٦٨ .

(٢) أخرجه البخاري (٦ / ٥٤٧) ومسلم (٢٨٥٦) .

(٣) السيرة لابن هشام ١ / ٧٨ ، وأخرجه الحاكم ٤ / ٦٠٥ بنحوه ، إلاّ أنه قال « غيّر دين إبراهيم » .

بإساف ويختم بنائلة»[1] اهـ .

والخلاصة : هي كما قال الحافظ : «وقصة الصالحين كانت مبتدأ عبادة قوم نوح هذه الأصنام ثم تبعهم من بعدهم على ذلك»[2] ، وأن أول من دعا إلى عبادتها في العرب هو عمرو بن لحي بن قمعة الخزاعي ، ويقال له عمرو بن ربيعة أو عمرو بن عامر نسبة إلى جده . والله تعالى أعلم .

---

(١) الفتح : ٦ / ٥٤٩ .

(٢) الفتح : ٨ / ٦٦٩ .

سد ذرائع[1] الشرك

«لما كانت المقاصد لا يتوصل إليها إلا بأسباب وطرق تفضي إليها ، كانت طرقها وأسبابها تابعة لها معتبرة بها . فوسائل المحرمات والمعاصي في كراهتها والمنع منها بحسب إفضائها إلى غايتها وارتباطها بها . فوسيلة المقصود تابعة للمقصود وكلاهما مقصود لكنه مقصود قصد الغايات وهي مقصودة قصد الوسائل . فإذا حرم الرب تعالى شيئاً وله طرق ووسائل تفضي إليه فإنه يحرمها ويمنع منها ، تحقيقاً لتحريمه وتثبيتاً له ومنعاً أن يقرب حماه» ا هـ ، من إعلام الموقعين (١٤٧/٣) .

ولما كان الشرك أعظم الذنوب ، فقد سدت دونه كل الوسائل المفضية إليه ، والذرائع الموصلة إليه ، وأعظمها العكوف على قبور الأولياء والصالحين وتعظيمها ، والغلو فيهم بالمحبة والإطراء والتعظيم .

وقد تقدم معنا أن مبدأ الشرك في قوم نوح ، كان سببه العكوف على قبور الصالحين ، وهم ود وسواع ويغوث ويعوق ونسر .

وأما عبادة النصارى للمسيح عليه السلام ، فكان سببها الغلو في التعظيم والإطراء ، وكذا عبادة اليهود لعزير عليه السلام وعبادة المشركين للملائكة ، ولذا فقد جاءت النصوص محذرة من هاتين الذريعتين : تعظيم القبور والغلو في أصحابها .

---

(١) الذريعة : هي الوسيلة إلى الشيء، وسد الذرائع معناه إذاً : حسم مادة وسائل الفساد دفعاً لها . انظر لسان العرب ٨ / ٩٦)، والفروق للقرافي ٢ / ٣٢ .

والذين عبدوا الأوثان [وهي مقامات الصالحين] والأصنام [وهي صورهم وتماثيلهم] ، إنما عبدوها لأنها ترمز إلى أولئك المعبودين المعظمين ، وبخاصة المقبورين منهم ، فهي ليست معظمة لذاتها وإنما لكونها صورت على أشكالهم ، أو على هيئة اخترعها عبادهم وتخيلوها في أذهانهم ، فصنعوا لها هياكل تدل عليهم وسموها بأسماء مخترعة أيضاً ، كما فعل المشركون حين عبدوا الملائكة على صور أصنام واشتقوا لها أسماء من أسماء الله عز وجل ، لأنهم - بزعمهم - بنات الله ، تعالى الله عما يقول الظالمون علواً كبيراً .

والذين عبدوا [أنصاب المقامات أو المشاهد والمزارات والأضرحة] ، إنما عبدوها [بالدعاء أوالذبح أوالنذر أو نحو ذلك من العبادات] تبركاً بها وتعظيماً للمعبودين إما لكونهم مقبورين فيها ، أو لأنها أثر من الآثار الدالة عليهم .

﴿ألا فلا تتخذوا القبور مساجد﴾

ومن أعظم الوسائل المفضية إلى عبادة القبور والشرك بها وأتخادها أوثاناً تعبد من دون الله ، العكوف عندها للصلاة والدعاء والعبادة وسائر القرب ، فقد تواترت النصوص في النهي عن ذلك ، ووردت بأبلغ عبارات التحذير وأشدها ، إذ جاءت مقرونة باللعن والقتل والغضب ، ووصف فاعلوها بأنهم شرار الخلق عند الرب عز وجل .

١- فعن أبي مرثد الغنوي رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : «لا تجلسوا على القبور ولا تصلوا إليها» ، رواه مسلم (٩٧٢) .

٢- وعن أنس رضي الله عنه «أن النبي ﷺ نهى عن الصلاة إلى القبور» أخرجه ابن حبان (٣٤٣) .

٣- وعن عائشة رضي الله عنها : أن أم حبيبة وأم سلمة رضي الله عنهما ذكرتا للنبي ﷺ كنيسة رأينها بالحبشة فيها تصاوير ، فقال النبي ﷺ : «إن أولئك إذا كان فيهم الرجل الصالح فمات بنوا على قبوه مسجداً وصوروا فيه تلك الصور ، فأولئك شرار الخلق عند الله يوم القيامة» ، أخرجه البخاري (٥٢٣/١) ومسلم (٥٢٨) .

٤- وعن عائشة وابن عباس رضي الله عنهما قالا : لما نزل برسول الله ﷺ طفق يطرح خميصة له على وجهه فإذا اغتم بها كشفها عن وجهه فقال : وهو كذلك «لعنة الله على اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد» .

قالت عائشة : «يحذر ما صنعوا» أخرجه البخاري (٥٣٢/١) ومسلم (٥٣١) .

٥- وعنها رضي الله عنها قالت : قال رسول الله ﷺ في مرضه الذي لم يقم منه : «لعن الله اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد» قالت عائشة : «فلولا ذاك أبرز قبره ، غير أنه خشي أن يتخذ مسجداً» رواه البخاري (٢٠٠/٣) ومسلم (٥٢٩) .

٦- وعن جندب بن عبدالله رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال ، قبل موته بخمس : «ألا وإن من كان قبلكم كانوا يتخذون قبور أنبيائهم وصالحيهم مساجد ، ألا فلا تتخذوا القبور مساجد ، إني أنهاكم عن ذلك» أخرجه مسلم (٥٣٢) .

٧- وعن ابن مسعود رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال : «إن من شرار الناس من تدركهم الساعة وهم أحياء والذين يتخذون القبور مساجد» رواه أحمد (٤١٤٣-٤٣٤٢) .

٨- وعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال : «اللهم لا تجعل قبري وثناً ، لعن الله قوماً اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد» رواه أحمد (٢٤٦/٢) .

٩- وعن عطاء بن يسار ، أن رسول الله ﷺ قال : «اللهم لا تجعل قبري وثناً يعبد ، اشتد غضب الله على قوم اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد» رواه مالك في الموطأ مرسلاً (١٧٢/١) .

قال الإمام ابن قيم رحمه الله في «إغاثة اللهفان من مصائد

الشيطان» : (ومن أعظم مكايده التي كاد بها أكثر الناس ، وما نجا منها إلا من لم يرد الله تعالى فتنته ، ما أوحاه قديماً وحديثاً إلى حزبه وأوليائه من الفتنة بالقبور ، حتى آل الأمر فيها إلى أن عُبد أربابها من دون الله وعبدت قبورهم واتخذت أوثاناً ، وبنيت عليها الهياكل وصورت صور أربابها فيها ، ثم جعلت تلك الصور أجساداً لها ظل ثم جعلت أصناماً وعبدت مع الله تعالى .

وكان أول هذا الداء العظيم في قوم نوح ، كما أخبر سبحانه عنهم في كتابه حيث يقول : ﴿**وقالوا لا تذرن آلهتكم ولا تذرن ودّاً ولا سواعاً ولا يغوث ويعوق ونسراً وقد أضلّوا كثيراً**﴾ .

قال غير واحد من السلف : («كان هؤلاء قوماً صالحين في قوم نوح عليه السلام ، فلما ماتوا عكفوا على قبورهم ثم صوروا تماثيلهم ، ثم طال عليهم الأمد فعبدوهم») .

وقال ابن القيم : (فهؤلاء جمعوا بين الفتنتين : فتنة القبور ، وفتنة التماثيل ، وهما الفتنتان اللتان أشار إليهما رسول الله ﷺ في الحديث المتفق على صحته عن عائشة رضي الله عنها : أن أم حبيبة وأم سلمة ذكرتا كنيسة رأينها بالحبشة . . .) وذكر الحديث ، ثم قال : (فجمع في هذا الحديث بين التماثيل والقبور . وهذا كان سبب عبادة اللات . فروى ابن جرير بإسناده عن سفيان عن منصور عن مجاهد قال : (كان يلت لهم السويق فمات فعكفوا على قبره) . وكذلك قال ابن عباس رضي الله عنهما : (كان يلت السويق للحاج) .

فقد رأيت أن سبب عبادة ود وسواع ويغوث ويعوق ونسر واللات إنما كان من تعظيم قبورهم ثم اتخذوا لها التماثيل وعبدوها) . ثم ساق رحمه الله الأحاديث السابقة في النهي عن اتخاذ القبور مساجد ، ثم قال : (وبالجملة ؛ فمن له معرفة بالشرك وأسبابه وذرائعه ، وفهم عن رسول الله ﷺ مقاصده جزم جزماً لا يحتمل النقيض أن هذه المبالغة منه باللعن والنهي بصيغتيه : صيغة «لا تفعلوا» وصيغة «إني أنهاكم» ليس لأجل النجاسة الحسية ، بل هو لأجل نجاسة الشرك اللاحقة بمن عصاه ، وارتكب ما عنه نهاه واتبع هواه ، ولم يخش ربه ومولاه ، وقلّ نصيبه أو عدم في تحقيق شهادة أن لا إله إلا الله . فإن هذا النهي وأمثاله من النبي ﷺ صيانة لحمى التوحيد أن يلحقه الشرك ويغشاه ، وتجريد له وغضب لربه أن يعدل به سواه .

فأبى المشركون إلا معصية لأمره ، وارتكاباً لنهيه وغرهم الشيطان فقال : بل هذا تعظيم لقبور المشايخ والصالحين ، وكلما كنتم أشد لها تعظيماً ، وأشد فيهم غلوّاً ، كنتم بقربهم أسعد ومن أعدائهم أبعد) .

وقال ابن القيم : (ولعمر الله ، من هذا الباب بعينه دخل على عباد يغوث ويعوق ونسر ، ومنه دخل على عباد الأصنام منذ كانوا إلى يوم القيامة . فجمع المشركون بين الغلو فيهم والطعن في طريقتهم .

وهدى الله أهل التوحيد لسلوك طريقتهم ، وإنزالهم منازلهم التي أنزلهم الله إياها : من العبودية وسلب خصائص الإلهية عنهم ، وهذا غاية تعظيمهم وطاعتهم . فأما المشركون فعصوا أمرهم ، وتنقصوهم في صورة التعظيم لهم) .

ثم قال : (ومن جمع بين سنة رسول الله ﷺ في القبور وما أمر به ونهى عنه وما كان عليه أصحابه ، وبين ما عليه أكثر الناس اليوم رأى أحدهما مضاداً للآخر مناقضاً له ، بحيث لا يجتمعان أبداً .

أ- فنهى رسول الله ﷺ عن الصلاة إلى القبور ، وهؤلاء يصلون عندها .

ب- ونهى عن اتخاذها مساجد ، وهؤلاء يبنون عليها المساجد ويسمونها مشاهد ، مضاهاة لبيوت الله تعالى .

ج- ونهى عن إيقاد السرج عليها ، وهؤلاء يوقفون الوقوف على إيقاد القناديل عليها .

د- ونهى أن تتخذ عيداً ، وهؤلاء يتخذونها أعياداً ومناسك ويجتمعون لها كاجتماعهم للعيد أو أكثر .

هـ- وأمر بتسويتها ، وهؤلاء يرفعونها عن الأرض كالبيت ويعقدون عليها القباب .

* والمقصود أن هؤلاء المعظمين للقبور المتخذينها أعياداً ، الموقدين عليها السرج ، الذين يبنون عليها المساجد والقباب ، مناقضون لما أمر به رسول الله ﷺ محادُّون لما جاء به) .

ثم قال رحمه الله : (وقد آل الأمر بهؤلاء الضلال المشركين إلى أن شرعوا للقبور حجاً ، ووضعوا له مناسك ، حتى صنف بعض غلاتهم في ذلك كتاباً وسماه «مناسك حج المشاهد» مضاهاة منه بالقبور للبيت

الحرام ، ولا يخفى أن هذا مفارقة لدين الإسلام ودخول في دين عباد الأصنام .

فانظر إلى هذا التباين العظيم بين ما شرعه رسول الله ﷺ وقصده ، من النهي عما تقدم ذكره في القبور وبين ما شرعه هؤلاء وقصدوه . ولا ريب أن في ذلك من المفاسد ما يعجز العبد عن حصره .

فمنها : تعظيمها الموقع في الافتتان بها ، ومنها : اتخاذها عيداً ، ومنها : السفر إليها ، ومنها : مشابهة عباده الأصنام بما يفعل عندها من العكوف عليها والمجاورة عندها وتعليق الستور عليها وسدانتها .

ومنها : اعتقاد المشركين بها أن بها يكشف البلاء وينصر على الأعداء ويستنزل غيث السماء ، وتفرج الكروب وتقضى الحوائج وينصر المظلوم ويجار الخائف . . . إلى غير ذلك .

ومنها : الدخول في لعنة الله تعالى ورسوله باتخاذ المساجد عليها وإيقاد السرج عليها .

ومنها : الشرك الأكبر الذي يفعل عندها . . ومنها : إيذاء أصحابها بما يفعله المشركون بقبورهم ، فإنهم يؤذيهم ما يفعل عند قبورهم ويكرهونه غاية الكراهية) ا هـ ملخصاً من إغاثة اللهفان (١/١٤٣-١٥٤) .

وقال الإمام النووي في شرح مسلم : (قال العلماء : إنما نهى النبي ﷺ عن اتخاذ قبره وقبر غيره مسجداً خوفاً من المبالغة في

تعظيمه والافتتان به ، فربما أدى ذلك إلى الكفر كما جرى لكثير من الأمم الخالية .

ولما احتاج [الأمويون تجاوز الله عنا وعنهم أجمعين] إلى الزيادة في مسجد رسول الله ﷺ حين كثر المسلمون ، وامتدت الزيادة إلى أن دخلت بيوت أمهات المؤمنين فيه ، ومنها حجرة عائشة رضي الله عنها مدفن رسول الله ﷺ وصاحبيه أبي بكر وعمر رضي الله عنهما بنوا على القبر حيطاناً مرتفعة مستديرة حوله لئلا يظهر في المسجد فيصلي إليه العوام ويؤدي إلى المحذور .

ثم بنوا جدارين من ركني القبر الشماليين وحرفوهما حتى التقيا حتى لا يتمكن أحد من استقبال القبر) اهـ . من شرح النووي على مسلم (٥/١٣-١٤) .

وقال الحافظ ابن حجر : (وكأنه ﷺ علم أنه مرتحل من ذلك المرض فخاف أن يعظم قبره كما فعل من مضى فلعن اليهود والنصارى إشارة إلى ذم من يفعل فعلهم) ا هـ من فتح الباري (١/٥٣٢) .

وقال في موضع آخر : (والوعيد على ذلك يتناول من اتخذ قبورهم مساجد تعظيماً ومغالاة كما صنع أهل الجاهلية وجرهم ذلك إلى عبادتهم) ا هـ من فتح الباري (١/٥٣٤) .

﴿لا تغلوا في دينكم﴾

الوسيلة الأخرى المفضية إلى عبادة الأوثان واتخاذ الأنداد من دون الله : الغلو في الصالحين من الأنبياء والملائكة وغيرهم من عباد الله المكرمين .

وقد أخبر الله عز وجل في كتابه عن أهل الكتاب والمشركين الذين غلوا في بعض خلقه فعبدوهم من دون الله واتخذوهم أرباباً وآلهة ، يدعونهم ويرجونهم ويحبونهم كحب الله ، تحذيراً من الوقوع في مثل أفعالهم .

* قال عز وجل : **﴿وقالت اليهود عزير ابن الله وقالت النصارى المسيح ابن الله ذلك قولهم بأفواههم يضاهئون قول الذين كفروا من قبل قاتلهم الله أنى يؤفكون . اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله والمسيح ابن مريم وما أمروا إلا ليعبدوا إلهاً واحداً لا إله إلا هو سبحانه عما يشركون﴾** .

* وقال عز من قائل : **﴿قل يا أهل الكتاب لا تغلوا في دينكم غير الحق ولا تتبعوا أهواء قوم قد ضلوا من قبل وأضلوا كثيراً وضلوا عن سواء السبيل﴾** .

قال ابن كثير رحمه الله في تفسيره : (ينهى تعالى أهل الكتاب عن الغلو والإطراء ، وهذا كثير في النصارى ، فإنهم تجاوزوا حد

التصديق بعيسى حتى رفعوه فوق المنزلة التي أعطاه الله إياها ، فنقلوه من حيز النبوة إلى أن اتخذوه إلهاً من دون الله يعبدونه كما يعبدونه . بل قد غلوا في أتباعه وأشياعه ممن زعم أنه على دينه ، فادعوا فيهم العصمة واتبعوهم في كل ما قالوه سواء كان حقاً أو باطلاً ، أو ضلالاً أو رشاداً ، أو صحيحاً أو كذباً ، ولهذا قال تعالى : ﴿**اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله**﴾ (٢/٤٣٠) ط . الشعب .

وقال ابن جرير رحمه الله في تفسيره :﴿**لا تغلوا في دينكم**﴾ يقول : لا تجاوزوا الحق في دينكم فتفرطوا فيه ولا تقولوا في عيسى غير الحق . فإن قيلكم في عيسى إنه ابن الله قول منكم على الله غير الحق لأن الله لم يتخذ ولداً فيكون عيسى أو غيره من خلقه له ابناً .

وأصل الغلو في كل شيء مجاوزة حده الذي هو حده ، يقال منه في الدين : قد غلا فهو يغلو غلواً) (٩/١٧٠-١٧١) .

* قلت : ولأن الغلو في المسيح عليه السلام هو الذي أدى بالنصارى إلى الكفر فألّهوه وعبدوه ، فقد حذر النبي ﷺ أمته من الغلو في شخصه لئلا تقع في المحذور الذي وقع فيه من قبلهم .

١- فقال لهم : «لا تطروني كما أطرت النصارى ابن مريم فإنما أنا عبد فقولوا عبدالله ورسوله» أخرجه البخاري (٦/٤٧٨) .

٢- وقال ﷺ : «إياكم والغلو في الدين فإنما هلك من كان قبلكم بالغلو في الدين» رواه أحمد (١/٢١٥) والنسائي (٥/٢٦٨) وابن خزيمة (٤/٢٧٤) .

٣- وأنكر ﷺ على من قال له : ما شاء الله وشئت . وقال : «أجعلتني لله عدلاً؟ بل ما شاء الله وحده» رواه أحمد(ح١٨٣٩) .

٤- وكره أن يقوم له أصحابه ، كما قال أنس رضي الله عنه : «لم يكن شخص أحب إليهم من رسول الله ﷺ وكانوا إذا رأوه لم يقوموا لما يعلمون من كراهيته لذلك» رواه الترمذي (٥/٩٠) .

٥- وكره منهم قولهم له : أنت سيدنا . فقال : «السيد الله تبارك وتعالى» مع أنه أخبر في حديث الشفاعة أنه سيد ولد آدم يوم القيامة ، سداً لذريعة الغلو فيه بدليل أنه قال : «أيها الناس قولوا بقولكم أو بعض قولكم ولا يستجرينكم الشيطان» رواه أبو داود (٥/١٥٤) .

فذلك كان هديه ﷺ مع أصحابه على الدوام ، كان ينهاهم عن الغلو فيه والمبالغة في تعظيمه خوفاً عليهم أن يقعوا في المحظور الذي وقع فيه من قبلهم من أهل الكتاب .

* ولم يقتصر النبي ﷺ على جانب الإنكار على الغالين ، بل كان هديه التواضع لله والخشية والعبودية له والافتقار إليه في أحواله كلها :

١- فقال : «ما بال أقوام يتنزهون عن الشيء أصنعه ، فوالله إني لأعلمهم بالله وأشدهم له خشية» متفق عليه .

٢- وكان إذا رأى غيماً أو ريحاً عُرف ذلك في وجهه ، فلما سُئل عن ذلك قال : «ما يؤمنني أن يكون فيه عذاب؟ فقد عُذِّب قوم بالريح ، وقد رأى قوم العذاب فقالوا هذا عارض ممطرنا» متفق عليه .

٣- وقال ﷺ : «لن يدخل أحداً منكم عمله الجنة» قالوا : ولا أنت يا رسول الله؟ قال : «ولا أنا ، إلا أن يتغمدني الله منه بفضل ورحمة» متفق عليه .

٤- وقال أيضاً : «والله ما أدري وأنا رسول الله ما يفعل بي» رواه البخاري (١١٤/٣) .

* وكان يذكّر أصحابه على الدوام بأنه بشر يعتريه ما يعتري البشر من الضعف والنسيان والخطأ ، في غير تبليغ الشريعة فإنه معصوم من الخطأ :

١- فقد سها في صلاته أكثر من مرة بالزيادة والنقصان ، وقال : «إنما أنا بشر مثلكم أنسى كما تنسون ، فإذا نسيت فذكروني» متفق عليه .

٢- وقال أيضاً : «إنما أنا بشر ، وإنكم تختصمون إلي ، ولعل بعضكم أن يكون ألحن بحجته من بعض فأقضي له على نحو ما أسمع» متفق عليه .

٣- وقال : «إني أوعك كما يوعك رجلان منكم» متفق عليه .

* ومن تواضعه ﷺ مع إخوانه الأنبياء :

١- قوله : « نحن أحق بالشك من إبراهيم إذ قال : ﴿رب أرني كيف تحيي الموتى﴾» متفق عليه .

٢- وجاءه رجل فقال له : يا خير البرية ، فقال رسول الله ﷺ :

ذاك إبراهيم خليل الله» رواه مسلم (٢٣٦٩) .

٣- وقال : «لو لبثت في السجن طول ما لبث يوسف لأجبت الداعي» متفق عليه .

٤- ولما سئل ﷺ : من أكرم الناس؟ قال : «أتقاهم لله» فقالوا : ليس عن هذا نسألك . قال : «فأكرم الناس يوسف نبي الله ابن نبي الله ابن نبي الله ابن خليل الله» متفق عليه .

٥- ولما بلغه قول الرجل المسلم لليهودي : والذي اصطفى محمداً على العالمين ، غضب ﷺ حتى رئي في وجهه وقال : «لا تفضلوا بين الأنبياء» وفي لفظ : «لا تخيّروني على موسى ، فإن الناس يصعقون فأكون أول من يفيق فإذا موسى باطش بجانب العرش ، فلا أدري أكان فيمن صعق فأفاق قبلي ، أو كان ممن استثنى الله» متفق عليه .

٦- وقسم رسول الله ﷺ قسماً ، فقال رجل : ما أريد بهذا وجه الله . فبلغ ذلك النبي ﷺ فتمعر وجهه وقال : «يرحم الله موسى قد أوذي بما هو أشد من هذا فصبر» متفق عليه .

* ولقد كان هديه ﷺ في الدعاء والذكر في سائر الأحوال أحسن الهدي وأكمله ، ذلة وخضوعاً وخشية وإنابة ورغبة ورهبة لله عز وجل ، تحقيقاً لكمال العبودية لربه ومولاه ، وإرشاداً لأمته من بعد أن تستن بسنته وتهتدي بهداه ، فتلهج قلوبهم وألسنتهم بذكر الله وحده ودعائه وقصده في سائر الأحوال دون سواه :

١- فكان من دعائه ﷺ عند قيامه للصلاة قوله : «وجهت وجهي للذي فطر السموات والأرض حنيفاً وما أنا من المشركين ، إن صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي لله رب العالمين لا شريك له وبذلك أمرت وأنا من المسلمين ، اللهم أنت الملك لا إله إلا أنت ، أنت ربي وأنا عبدك ، ظلمت نفسي واعترفت بذنبي فاغفر لي ذنوبي جميعاً إنه لا يغفر الذنوب إلا أنت . . .»الحديث رواه مسلم .

٢- وإذا ركع قال : «اللهم لك ركعت وبك آمنت ولك أسلمت ، خشع لك سمعي وبصري ومخي وعظمي وعصبي . . .» رواه مسلم (٧٧١) .

٣- وإذا سجد قال : « اللهم لك سجدت وبك آمنت ولك أسلمت . سجد وجهي للذي خلقه وصوره وشق سمعه وبصره تبارك الله أحسن الخالقين . .» رواه مسلم (٧٧١) .

٤- ثم يقول بين التشهد والتسليم : «اللهم اغفر لي ما قدمت وما أخرت وما أسررت وما أعلنت وما أسرفت وما أنت أعلم به مني ، أنت المقدم وأنت المؤخر ، لا إله إلا أنت» رواه مسلم [٧٧١] .

٥- وكان ﷺ يقول إذا أمسى : «أمسينا وأمسى الملك لله والحمد لله . لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير . رب أسألك خير ما في هذه الليلة وخير ما بعدها . .» .

٦- وكذا يقول إذا أصبح : «أصبحنا وأصبح الملك لله . . .» مثله . رواه مسلم (٢٧٢٣) .

٧- وكان ﷺ يقول عند الكرب : «لا إله إلا الله العظيم الحليم ، لا إله إلا الله رب العرش العظيم ، لا إله إلا الله رب السموات والأرض ، لا إله إلا الله رب العرش الكريم» متفق عليه .

قلت : وسائر الأدعية والأذكار على هذا المنوال .

* والمقصود أن النبي ﷺ سد على أمته كل الذرائع المفضية إلى الغلو فيه أو في غيره من الناس بمثل هذه السنن القويمة لئلا تقع فيما وقع فيه غيرها من الأمم السابقة .

ويحسن هنا أن أختم هذا الفصل بما فصّله ابن القيم رحمه الله في (إعلام الموقعين) في هذه القاعدة العظيمة ، قاعدة سد الذرائع ، فساق تسعة وتسعين وجهاً ، ذكر منها :

* الوجه الرابع عشر : (أنه ﷺ نهى عن الصلاة عند طلوع الشمس وعند غروبها (متفق عليه) ، وكان من حكمة ذلك أنهما وقت سجود المشركين للشمس ، وكان النهي عن الصلاة لله في ذلك الوقت سداً لذريعة المشابهة الظاهرة التي هي ذريعة إلى المشابهة في القصد ، مع بعد هذه الذريعة ، فكيف بالذرائع القريبة؟) .

* الوجه الثالث والأربعون : (أنه ﷺ قال : «لا تقولوا ما شاء الله وشاء محمد» (النسائي٦/٧) ، وذم الخطيب الذي قال : «من يطع الله ورسوله فقد رشد ومن عصاهما فقد غوى» (مسلم ٨٧٠) ، سداً لذريعة التشريك في المعنى بالتشريك في اللفظ ، وحسماً لمادة الشرك حتى في اللفظ . ولهذا قال للذي قال له : ما شاء الله وشئت :

«أجعلتني لله نداً»؟ فحسم مادة الشرك وسد الذريعة إليه في اللفظ كما سدها في الفعل والقصد . فصلاة الله وسلامه عليه وعلى آله أكمل صلاة وأتمها وأزكاها وأعمها) .

* الوجه التاسع والأربعون : (أنه نهاهم إذا أقيمت الصلاة أن يقوموا حتى يروه قد خرج (متفق عليه) ، لئلا يكون ذلك ذريعة إلى قيامهم لغير الله ، ولو كانوا إنما يقصدون القيام للصلاة ، لكن قيامهم قبل خروج الإمام ذريعة ولا مصلحة فيها فنهوا عنه) .

* الوجه التاسع والثمانون : (أن النبي ﷺ نهى الرجل أن ينحني للرجل إذا لقيه (أحمد والترمذي) ، كما يفعله كثير من المنتسبين إلى العلم ، ممن لا علم له بالسنة ، بل يبالغون إلى أقصى حد الانحناء مبالغة في خلاف السنة جهلاً حتى يصير أحدهم بصورة الراكع لأخيه ثم يرفع رأسه من الركوع ، كما يفعل إخوانهم من السجود بين يدي شيوخهم الأحياء والأموات ، فهؤلاء أخذوا من الصلاة سجودها ، وأولئك ركوعها وطائفة ثالثة قيامها . يقوم عليهم الناس وهم قعود كما يقومون في الصلاة ، فتقاسمت الفرق الثلاث أجزاء الصلاة .

والمقصود أن النبي ﷺ نهى عن انحناء الرجل لأخيه سداً لذريعة الشرك كما نهى عن السجود لغير الله (أحمد وابن ماجه) ، وكما نهاهم أن يقوموا في الصلاة على رأس الإمام وهو جالس (مسلم ٤١٣) ، مع أن قيامهم عبادة لله تعالى ، فما الظن إذا كان القيام تعظيماً للمخلوق وعبودية له؟ فالله المستعان) ا هـ (١٥١/٣-١٦٧) .

الباب الأول
الدعوة إلى الشرك

أولا : الشرك في العبادة

* تبين مما تقدم أن الإسلام هو إفراد الله بالعبادة والخضوع والذل ، وأن الرسل جميعاً ما أرسلوا إلا لدعوة الناس إلى توحيد الله بالعبادة ، فكلهم كان يقول : ﴿**اعبدوا الله ما لكم من إله غيره**﴾ ، وأن شرك الأمم كان بعبادة غير الله مع عبادتهم لله ، وهذا هو الشرك في العبادة ، وهو الذي كانت عليه العرب قبل بعثة النبي ﷺ .

* أما الربوبية ، وهي الإقرار بأن الله هو خالقهم وخالق السموات والأرض وأنه مدبر الأمر وأنه يجير ولا يجار عليه ، وأن بيده مقاليد السموات والأرض . . . إلى غير ذلك من أفعال الله ، فكانوا مقرين بها كما في قول الله تعالى : ﴿**ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض ليقولن الله**﴾ .

* وعلمت أن مبدأ ذلك الشرك كان العكوف على قبور الصالحين والغلو فيهم ونحت التماثيل على صورهم وأشكالهم ، ثم لما تنسّخ العلم عبدوهم ، فدعوهم من دون الله وسألوهم واتخذوهم شفعاء ووسائط ليقربوهم إلى الله . قال الله تعالى : ﴿**والذين اتخذوا من دونه أولياء ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى**﴾ وقال سبحانه :

﴿ويعبدون من دون الله ما لا يضرهم ولا ينفعهم ويقولون هؤلاء شفعاؤنا عند الله﴾ .

* وأن هؤلاء الشفعاء والوسطاء كانوا إما ملائكة وإما أنبياء كالمسيح وعزير عليهما السلام ، وإما أناساً صالحين كاللات وود وسواع وغيرهم . وأما الجمادات التي كانوا يعبدونها كأوثان الأضرحة والمقامات والمزارات والمشاهد والأشجار والأحجار ، فهي لم تقصد لذاتها بل لأنها تقوم مقامهم وترمز إليهم ، ولذلك سمّيت مقامات .

* والأصنام إما أنها صورت على صورهم حقيقة ، كالصالحين والقديسين ، وإما على ما صوره خيال المشركين ، كصور الملائكة الذين جعلوهم بنات لله ، تعالى الله عما يقول الظالمون علواً كبيراً .

* ومن أجل ذلك حرمت الوسائل الموصلة إلى الشرك وسدت الذرائع المفضية إليه من كل وجه ومنها الغلو في الأنبياء والصالحين وتعظيم قبورهم والعكوف عليها واتخاذها مساجد وأعياداً ومشاهد .

* فكان موقف المخالف (محمد بن علوي المالكي) من تلك القضايا كلها موقف النقض والمعارضة للتوحيد وخرق نسيجه وانتهاك حماه والترغيب في الشرك والغلو بأنواعه ووسائله .

* ففي جانب الغلو في المخلوقين يقول المخالف : «إعلم أن جميع الكرامات والخصائص الواقعة في هذا العالم (من منذ) خلق الله تعالى الدنيا لنبينا محمد ﷺ بحكم الأصالة ، وإن وقع شيء منها لخواص الخلق فذلك بحكم التبعية في الإرث له ﷺ .

ثم اعلم أن كل ما مال إلى تعظيم رسول الله ﷺ لا ينبغي لأحد البحث فيه ولا المطالبة بدليل خاص فيه فإن ذلك سوء أدب ، فقل ما شئت في رسول الله ﷺ على سبيل المدح لا حرج» ا هـ (الذخائر ص٢٠١) .

* وفي شأن تعظيم القبور ، ذكر في شفاء الفؤاد أن زيارة قبره ﷺ إقرار لصاحب الرسالة محمد بن عبدالله بعظيم الفضل وكمال الإحسان . إلى أن قال : وهذا هو عين التوحيد(ص٣٦) . وجعل زيارة القبر من الهجرة إلى الله ورسوله (ص٥٥) ، وفضّلها على الحج إلى بيت الله الحرام (ص٣٥ ، ٢٦٥) ، وحرَّف في سبيل إثبات ذلك كل النصوص الدالة على تحريم اتخاذ القبور مساجد وشد الرحل إليها واتخاذها عيداً وعكس معناها لتوافق هواه ومذهبه (ص١٠ ، ٩٥ ، ٩٩) .

* وما صنعه في الوسائل والذرائع الموصلة إلى الشرك الأكبر ، صنع مثله بل أضعافه في الشرك نفسه ، فشحن كتابيه بأنواعه كلها .

أمثلة من شرك العبادة :

١- قوله في الذخائر : فليس لنا يا رسول الله شفيع غيرك نؤمله ولا رجاء غير بابك نصله . (ص١٠١ ومثله من الشفاء ص١٠٩-١١٧) .

٢- وقوله عن زيارة قبور الأنبياء عليهم السلام : فإذا جاء إليهم فليتصف بالذل والانكسار والمسكنة والفقر والفاقة والحاجة والاضطرار

والخضوع ، وليحضر قلبه وخاطره إليهم وإلى مشاهدتهم بعين قلبه لا بعين بصره . إلى أن قال : ويستغيث بهم ويطلب حوائجه منهم ويجزم بالإجابة ببركتهم ويقوي حسن ظنه في ذلك فإنهم باب الله المفتوح . . . لا يردون من سألهم ولا من توسل بهم ولا من قصدهم ولا من لجأ إليهم . (شفاء الفؤاد ٩٧) .

٣- ثم قال : وأما في زيارة سيد الأولين والآخرين صلوات الله عليه وسلامه ، فكل ما ذكر يزيد أضعافه ، أعني في الإنكسار والذلة والمسكنة لأنه الشافع المشفع الذي لا ترد شفاعته ولا يخيب من قصده ولا من نزل بساحته ولا من استعان أو استغاث به .

٤- ومما جاء في النظم قوله :

أنت الشفيع وآمالي معلقة ... وقد رجوتك يا ذا الفضل تشفع لي
هذا نزيلك أضحى لا ملاذ له ... إلاّ جنابك يا سؤلي ويا أملي

(الذخائر ١٠١ والشفاء ١٠٩)

٥- وقوله أيضاً :

فلذ به من كل ما تشتكي ... فهو شفيع دائماً يقبل
ولذ به في كل ما يرتجى ... فإنه المأمن والمعقل
وحط أحمال الرجا عنده ... فإنه المرجع والموئل
وناده إن أزمة أنشبت ... أظفارها واستحكم المعضل

يـا أكـــــرم الخلق علـى ربـه وخـيـر من فـيـهم به يسـأل
قـد مـسني الكرب وكم مـرة فـرجت كـرباً بعـضـه يذهل
عـجل بإذهاب الـذي أشـتكي فـإن توقـفت فـمن ذا أسـأل؟

قال المخالف : وهي مجربة لقضاء الحوائج تقرأ في آخر الليل . . . ويكرر بيت : عـجل بإذهاب الذي أشـتكي (٧٣) مـرة (الذخـائر ص١٥٨) .

٦- ومما جاء من أبيات أيضاً قوله :

يا مـلاذ الورى وخـيـر عـيـان ورجـــاء لكـل دان وقـــصي
لك وجهي وجهت يا أبيض الوجه فـــوجـــه إليـــه وجـــه الولي
(الذخائر ص١٦٦)

٧- وقوله :

فالآن ليس سوى قبر حللت به منجى الطريد وملجا كل معتصم
وإن رمتنا الخطايا وسط مهلكة فـأنت ملجـأ خلق الله كلهم
فالعفو شيمتك العظمى التي شهرت إذ كانت الموبقات الدهم من شيمي
(الشفاء ص١١٤)

٨- وقوله :

يا سيدي يا رسول الله خذ بيدي ... ما لي سواك ولا ألوي على أحد
إني إذا سامني ضيم يروعني ... أقول يا سيد السادات يا سندي
وانظر بعين الرضا لي دائماً أبداً ... واستر بفضلك تقصيري مدى الأمد
واعطف علي بعفو منك يشملني ... فإنني عنك يا مولاي لم أحد

(الشفاء ٢٠٣)

٩- وقوله :

يا سيدي إني رجوتك ناصراً ... من جور دهر خائن متقلب؟!
فأقل عثار عُبيدك الداعي الذي ... يرجوك إذ راجيك غير مخيب
واكتب له ولوالديه براءة ... من حر نار جهنم المتلهب
واقمع بحولك باغضيه وكل من ... يؤذيه من متمرد متعصب
واشفع له ولمن يليه وقم بهم ... في كل حال يا شفيع المذنب

(الشفاء ٢١٣)

١٠- وقوله :

ألا يا رسول الله عطفاً ورحمة ... لمسترحم مستنظر للمبارر
ألا يا حبيب الله غوثاً وغارة ... لذي كربة مسودة كالدياجر
ألا يا صديق لله قم بي فإنني ... بكم وإليكم يا شريف العناصر

(الشفاء ٢٢٢)

قلت : وهذا الذي نقلته قطرة من بحر وغيض من فيض ، وهو كما رأيت صريح الشرك والكفر ، إذ لم يَدَعْ لله شيئاً من أمور العبادة ، كالدعاء والرجاء والسؤال والطلب والاستعانة والاستغاثة والالتجاء والقصد وسائر ما كان يفعله المشركون من قبل بأوثانهم وآلهتهم مما لا يجوز صرفه لغير الله ، إلا أشرك فيه غير الله معه بل خصّ غير الله به .

وهو بهذا يكون قد نقض أصل الإيمان وحقيقة الإسلام التي مبناها على توحيد الله بالإرادة والقصد والطلب ، وعدم الإشراك به في شيء من أمور العبادة التي من أخصها الدعاء والالتجاء . قال الله تعالى : ﴿**ولا تدعُ من دون الله ما لا ينفعك ولا يضرك فإن فعلت فإنك إذاً من الظالمين . وإن يمسسك الله بضر فلا كاشف له إلا هو وإن يردك بخير فلا راد لفضله**﴾ .

«وحاصل كلام المفسرين أن الله تعالى نهى رسوله ﷺ أن يدعو من دونه ما لا ينفعه ولا يضره ، والمراد به كل من سوى الله فإنهم لا ينفعون ولا يضرون ، سواء في ذلك الأنبياء والصالحون وغيرهم كما قال تعالى : ﴿**وأن المساجد لله فلا تدعوا مع الله أحداً**﴾ . وقال النبي ﷺ لابن عباس : «إذا سألت فاسأل الله وإذا استعنت فاستعن بالله ، واعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشيء لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله لك ، وإن اجتمعوا على أن يضروك بشيء لم يضروك إلا بشيء قد كتبه الله عليك» رواه الترمذي (٦٦٧/٤) .

وفي الآية تنبيه على أن المدعو لابد أن يكون مالكاً للنفع والضر حتى يعطي من دعاه أو يبطش بمن عصاه ، وليس ذلك إلا لله وحده ،

فتعيّن أن يكون هو المدعو دون ما سواه . وقال تعالى : ﴿**فإن فعلت فإنك إذاً من الظالمين**﴾ أي المشركين .

وهذا كقوله : ﴿**فلا تدعُ مع الله إلهاً آخر فتكون من المعذبين**﴾ . وقوله : ﴿**ولقد أوحي إليك وإلى الذين من قبلك لئن أشركت ليحبطن عملك ولتكونن من الخاسرين**﴾ . وقوله في الأنبياء : ﴿**ولو أشركوا لحبط عنهم ما كانوا يعملون**﴾ (تيسير العزيز الحميد ص٢٣٦) .

وقد بين سبحانه في كتابه في أكثر من موضع أنه هو وحده الذي يملك النفع والضر ، لا يملكه أحد غيره ، حتى الرسول ﷺ سيد ولد آدم يوم القيامة وأكرمهم وأعظمهم جاهاً ، لا يملك لنفسه النفع والضر ، فضلاً عن أن يملك إيصاله للغير . قال الله تعالى : ﴿**قل لا أملك لنفسي نفعاً ولا ضراً إلا ما شاء الله ولو كنت أعلم الغيب لاستكثرت من الخير وما مسني السوء إن أنا إلا نذير وبشير لقوم يؤمنون**﴾ وقال تعالى : ﴿**قل لا أملك لنفسي ضراً ولا نفعاً إلا ما شاء الله**﴾ .

قال ابن جرير رحمه الله : (أي : لا أقدر لها على ضر ولا نفع في دنيا ولا دين ، ﴿**إلا ما شاء الله**﴾ أن أملكه فأجلبه إليها بإذنه) ا هـ (١٠٠/١٥) .

فإذا كان ﷺ لا يملك في حياته لنفسه نفعاً ولا ضراً في دنيا ولا دين فكيف يملك شيئاً من ذلك لغيره من العالمين بعد موته .

ومع وضوح هذا القياس وجلائه ، أن من لا يملك لنفسه ، أولى وأحرى أن لا يملك لغيره ، فقد جاء مصرحاً به في قوله تعالى : ﴿**قل إني لا أملك لكم ضراً ولا رشداً**﴾ ، كما صرح به هو ﷺ لأقرب الناس إليه محبة ونسباً ورحماً ولحمة ، فقال : «يا بني عبدمناف لا أغني عنكم من الله شيئاً . يا عباس بن عبدالمطلب لا أغني عنك من الله شيئاً ، ويا صفية عمة رسول الله لا أغني عنك من الله شيئاً . ويا فاطمة بنت محمد ، سليني ما شئت من مالي لا أغني عنك من الله شيئاً» (متفق عليه) . فبأي حديث بعده يؤمنون؟!

وقد أمر الله عز وجل عباده بتوحيده في القصد والدعاء والطلب ، في مواضع كثيرة من كتابه العزيز ، كقوله تعالى : ﴿**هو الحي لا إله إلا هو فادعوه مخلصين له الدين**﴾ .

وأخبر سبحانه عن إمام الحنفاء قوله : ﴿**إني وجهت وجهي للذي فطر السموات والأرض حنيفاً وما أنا من المشركين**﴾ .

وصح أن النبي ﷺ كان يقول في صلاته : «وجهت وجهي للذي فطر السموات والأرض حنيفاً وما أنا من المشركين» رواه مسلم (٧٧١) .

ومما سنه رسول الله ﷺ من الذكر والدعاء عند النوم أن يقول : «اللهم إني أسلمت نفسي إليك ووجهت وجهي إليك وفوضت أمري إليك وألجأت ظهري إليك رغبة ورهبة إليك لا ملجأ ولا منجا منك إلا إليك ، آمنت بكتابك الذي أنزلت وبنبيك الذي أرسلت» متفق عليه .

وينقض المخالف ذلك كله ويقول (مع ناظمه) : لك وجهي وجهت يا أبيض الوجه ، فوجه إليه وجه الولي . وهذا عين الكفر والمحادة لله ولرسوله ﷺ ، إذ صرف وجهه عن الخالق إلى المخلوق وعن الرب المالك المدبر إلى المملوك المربوب .

ومقتضاه كما هو ظاهر اللفظ : أنه وجه وجهه وأسلمه لمعبوده وحده ، وهو النبي ﷺ ، دون سواه ، وهذا مستفاد من تقديم المعمول على العامل في قوله : لك وجهت ، الذي يفيد الحصر . ويدل على ذلك نصّاً قوله : ﴿فأقل عثار عُبَيْدك الدّاعي﴾ .

* ولقد كان المشركون الأولون يدعون الله ويلجأون إليه وحده في الشدة ، كما أخبر الله عنهم وهو أصدق القائلين ، فقال : ﴿وما بكم من نعمة فمن الله ثم إذا مسكم الضر فإليه تجئرون . ثم إذا كشف الضر عنكم إذا فريق منكم بربهم يشركون﴾ .

وقال تعالى : ﴿فإذا ركبوا في الفلك دعوا الله مخلصين له الذين فلما نجاهم إلى البر إذا هم يشركون﴾ .

وقال سبحانه : ﴿قل أريتكم إن أتاكم عذاب الله أو أتتكم الساعة أغير الله تدعون إن كنتم صادقين . بل إياه تدعون فيكشف ما تدعون إليه إن شاء وتنسون ما تشركون﴾ .

وقال سبحانه : ﴿وإذا مس الإنسان ضر دعا ربه منيباً إليه ثم إذا خوله نعمة منه نسي ما كان يدعو إليه من قبل وجعل لله أنداداً ليضل عن سبيله قل تمتع بكفرك قليلاً إنك من أصحاب النار﴾ .

والآيات في معنى ذلك كثيرة .

والمقصود أنهم كانوا يدعونه سبحانه ويلجأون إليه في الملمات ، بل يخلصون له في الدعاء والقصد والرجاء لكشف الضر وتفريج الكربات .

ومع ذلك فقد حكم عليهم بالشرك والكفر والضلال وجعل مصيرهم إلى النار دار البوار ، لأنهم يشركون معه غيره من الأنداد ويدعونهم ويسألونهم في غير الشدائد من الأوقات .

* أما المخالف فقد وحَّد معبوده من دون الله في كل الملمات وأخلص له الدعاء والرجاء والالتجاء ، إذ قال مع ناظمه : (هذا نزيلك أضحى لا ملاذ له إلا جنابك يا سؤلي ويا أملي) . وهذا الأسلوب أيضاً يدل على الحصر والاختصاص ، وهو النفي مع الاستثناء (لا ، إلا) .

ومثله أيضاً قوله : (فليس لنا يا رسول الله شفيع غيرك نؤمله ولا رجاء غير بابك نصله) .

وقوله : (فالآن ليس سوى قبر حللت به ، منجى الطريد وملجا كل معتصم) .

* ولقد كان يكفيه أن يدعو إلهه مع الله ويلجأ إليه ويسأله بعض ما يرجوه ، ليكون في عداد المشركين ، لكنه أبى إلا الإيغال في الكفر والشرك ، فصرف كل العبادة للعبد المخلوق ، فقال :

ولذ به من كل ما تشتكي فهو شفيع دائماً يقبل
ولذ به في كل ما ترتجي فإنه المأمن والمعقل

وفي هذا دليل على أن شرك المخالف - ومن شاكله من المخالفين - أعظم من شرك الأولين ، وسيأتي ما يؤكده في الفصول التالية ، إن شاء الله .

* بل ها هو ذا يدعو صراحة إلى عبادة الأوثان ، لكن بصورة أخرى أعجب وأغرب مما وقفت عليه من بدع المخالفين على كثرتها واختلافها وتباينها بل ولا من أوثان المشركين .

لقد تخيّل شيطان لهم صورة النعل النبوي ، ثم صير ذلك الخيال واقعاً وخطه ورسمه ، ثم جعل يدعوه ويستغيث به ويستعينه ويسترحمه .

فأراد المخالف أن يتحف هذه الأمة التي أصيبت في دينها وإيمانها ، وادلهمت بها الخطوب ، وتوالت عليها المحن ، فدلّها على ذلك الحصن الحصين الذي ينجيها من كل كرب ويمنع عنها كل عدوان وظلم ويمنحها الأمان والأمن ، فقد عقد المخالف فصلاً من كتاب «الذخائر» بعنوان : اهتمام العلماء بمثال نعل النبي ﷺ ، قال فيه : اهتم بذلك الأئمة الفحول وصنف فيها رسالة خاصة الشيخ المقري ، وذكر لها أمثلة وكتب عنها كلمات جليلة مهمة .

ثم قال : ولا خفاء أن مثال النعل الشريف تصدّر بإضافته إلى ذي الصدر ، وخص لذلك برفعة الشأن والقدر ، فعلا على البدر . . وما المثال المكرم إلا وسيلة للقدم التي خص الله بأكمل الأوصاف صاحبها ﷺ :

وما حب النعال شغفن قلبي ولكن حب من لبس النعالا

فأكرم بها من نعال زكت بأطيب الفعال ، وشرفت بالمختار وسمت واتسمت من الفضائل بما اتسمت ، وحاكاها المثال بمحاسنه التي ارتسمت .

ثم ختم فصل «النعال» بصورة لذلك «المثال» المزعوم محلّى بأبيات من النظم لبعض المخرّفين على النحو التالي :

(هذه صورة مثال النعل النبوي الشريف كما صورت من الذخائر ص٢٦٦)

قلت : والأمر كما ترى ، ترغيب في الشرك وتعظيم التماثيل ، فقد أبى هذا المخالف أن تقتصر دعوته على التوجه للمخلوقين بالدعاء والاستغاثة والرغبة والرجاء ، واتخاذ قبورهم أوثاناً وقصدها بالحج والتعظيم ، فأضاف إليها هذا الخيال المبتدع المشابه لبدعة السامري **﴿فأخرج لهم عجلاً جسداً له خوار فقالوا هذا إلهكم وإله موسى فنسي . أفلا يرون ألا يرجع إليهم قولاً ولا يملك لهم ضراً ولا نفعاً﴾** .

وهذا والله دليل واضح وعلامة بينة على مبلغ سفه هذا المخالف وأضرابه وضلالهم وغيهم ومقتهم أنفسهم وامتهانهم لها ، ثم استخفافهم بعقول عامة الناس ، إذ يسطرون مثل هذا الهذيان ويحاولون نشره في أمة محمد ﷺ .

قال الله تعالى : **﴿إن الذين كفروا ينادون لمقت الله أكبر من مقتكم أنفسكم إذ تدعون إلى الإيمان فتكفرون﴾** .

ومن أضل ممن يُدعى إلى قصد الله والالتجاء إليه وحده فيأبى إلا الالتجاء إلى النعل وتزيين ذلك لغيره؟

* ولم يقتصر على الشرك في الدعاء والالتجاء فحسب ، بل عداه إلى عبادات مبتدعة أخرى :

١- فقد ذكر المخالف ما يلزم زائر القبر من آداب قال : ومنها ، أن يتوجه بعد ذلك ، (أي بعد صلاة التحية) ، إلى الضريح الشريف مستعيناً بالله في رعاية الأدب بهذا الموقف المنيف ، فيقف بخضوع

ووقار وذلة وانكسار غاض الطرف مكفوف الجوارح واضعاً يمينه على شماله كما في الصلاة . (الشفاء ١٨٩-١٩٠) .

وفي معرض حديثه عن زيارة قبور الأنبياء ، قال : فإذا جاء فليتصف بالذل والإنكسار والمسكنة والفقر والفاقة والحاجة والاضطرار والخضوع وليحضر قلبه وخاطره إليهم . إلى أن قال : وأما في زيارة سيد الأولين والآخرين ، صلوات الله عليه وسلامه ، فكل ما ذكر يزيد أضعافه ، أعني في الإنكسار والذلة والمسكنة . (الشفاء٩٧) . وأنشد :

وقفنا على أعتاب فضلك سيدي لتقبيل ترب حبذا لك من ترب

الشفاء (٢٠٨)

وأنشد أيضاً :

نقبل الترب إجلالاً لساكنه فكل موطئ أقدام مقر فم

الشفاء (٢٠٨)

قلت : فقد أشرك قبر النبي ﷺ مع الله في خصائص الصلاة التي هي عمود هذا الدين وأعظم أركانه بعد الشهادتين ، وصرف لمعبوده من خصائصها : القيام والذلة والخضوع والخشوع وجمع القلب وحضور الخاطر ، وأضاف إليها بعض سننها ومكملاتها ، كغض البصر وكف الجوارح ووضع الأيمان على الشمائل .

٢- وقال المخالف في ذكر مناسك زيارة القبر الشريف : ينبغي ضبط الزيارة بما ضبط به الأئمة الاستطاعة في الحج . (الشفاء ١٣١) .

وقال أيضاً : فقرى الواقف ببابه الشريف كقرى الواقف بعرفات . إلى أن قال : فقد أتم الله للحبيب المضاهاة بكل الحالات (الشفاء١٣٢) .

قلت : وهذا - كما رأيت - صريح الشرك ، إذ سوى بين الحج إلى قبر المخلوق والحج إلى بيت الخالق ، بل صرح بالمضاهاة بكل الحالات ، مؤكداً به الشرك والتسوية .

٣- إدامة النظر إلى القبة والقبر : ومن عجائب العبادات التي اخترعها المخالف : إذ قال ما نصه : ويديم النظر إلى الحجرة الشريفة فإنه عبادة ، قياساً على الكعبة ، فإذا كان خارج المسجد أدام النظر إلى قبتها مع المهابة والحضور . (الشفاء ١٩٤) .

فصل : ﴿ . . . بل هم أضل﴾

كان المشركون الأولون يشركون مع الله في العبادة ، بدعاء الأصنام والأنداد والأوثان ورجائهم والاستشفاع بهم والتوسل إلى الله بهم ، كما قال تعالى : ﴿**والذين اتخذوا من دونه أولياء ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى**﴾ ، وقال : ﴿**ويعبدون من دون الله ما لا يضرهم ولا ينفعهم ويقولون هؤلاء شفعاؤنا عند الله**﴾ .

* لكنهم لم يكونوا مدمنين على تلك الحال ، فقد كانوا يخلصون لله الدعاء والالتجاء في بعض الأحوال ، قال تعالى : ﴿**فإذا ركبوا في الفلك دعوا الله مخلصين له الدين فلما نجاهم إلى البر إذا هم يشركون**﴾ . وقال : ﴿**قل من ينجيكم من ظلمات البر والبحر تدعونه تضرعاً وخفية لئن أنجانا من هذه لنكونن من الشاكرين . قل الله ينجيكم منها ومن كل كرب ثم أنتم تشركون**﴾ ، وقال عز وجل : ﴿**وإذا غشيهم موج كالظلل دعوا الله مخلصين له الدين فلما نجاهم إلى البر فمنهم مقتصد وما يجحد بآياتنا إلا كل ختار كفور**﴾ .

قال ابن كثير : ﴿**موج كالظلل**﴾ أي كالجبال والغمام (٤٥٢/٣) .

وقال الشوكاني : ﴿**دعوا الله مخلصين له الدين**﴾ أي دعوا الله وحده لا يعولون على غيره في خلاصهم لأنهم يعلمون أنه لا يضر ولا

ينفع سواه ، ولكنه تغلّب على طبائعهم العادات وتقليد الأموات ، فإذا وقعوا في مثل هذه الحالة اعترفوا بوحدانية الله وأخلصوا دينهم طلباً للخلاص والسلامة مما وقعوا فيه ، ﴿**فلما نجاهم إلى البر**﴾ صاروا قسمين : فقسم ﴿**مقتصد**﴾ أي موفٍ بما عاهد عليه الله في البحر من إخلاص الدين له باقٍ على ذلك بعد أن نجاه الله من هول البحر وأخرجه إلى البر سالماً .

قال الحسن : معنى مقتصد ، مؤمن متمسك بالتوحيد والطاعة ، وقال مجاهد : مقتصد في القول مضمر للكفر .

والأولى ما ذكرناه ، ويكون في الكلام حذف ، والتقدير : فمنهم مقتصد ومنهم كافر ، ويدل على هذا المحذوف قوله : ﴿**وما يجحد بآياتنا إلا كل ختّار كفور**﴾ الختر : أسوأ الغدر وأقبحه ، والكفور : عظيم الكفر بنعم الله سبحانه . انتهى ملخصاً . (فتح القدير ٤/٢٤٤-٢٤٥) .

قلت : فهذا كان حال المشركين السابقين في عبادتهم للآلهة من دون الله ، يعبدونها مع الله في الرخاء توسلاً بها واستشفاعاً إليه ، وينسونها إذا اشتد بهم البلاء ويصرفون وجوههم عنها إليه تعالى ويخلصون له في العبادة والدعاء والرجاء .

فهل اكتفى بموافقة المشركين؟ كلا ، بل زاد عليهم في الشرك وأربى ، وإليك البيان :

* **قال المخالف** :

توجه رسول الله في كل حاجة لنا ومهم في المعاش وفي القلب

* وقال

عليـك سـلام اللـه أنـت مـلاذنـا لدى اليسر والإعسار والسهل والصعب

قلت : فلم يترك لله حاجة من الحاجات ولا مهمة من المهمات يدعوه فيها ويرغب ، إذ صرف دعاءه ورجاءه في شأنه كله لإلهه ومعبوده من دون الرب المعبود في الرخاء والشدة ، في اليسر والعسر والسهل والصعب .

وقال :

يا غياث الخلق يا ذا الفضل والجود والإحسان في بحر وبر

وقال :

فلأنت في الدنيا وفي الأخرى وفي كـل المواطـن عدتـي ونـدائي

وقال :

واعطف عليَّ بعفوٍ منك يشملني فإنني عنك يـا مولاي لـم أحد

قلت : وهذا عين الضلال ، فقد صرف لمعبوده من دون الله دعاءه ورجاءه في كل الأوقات ، ولم يتخذه وسيلة إلى الله وشفيعاً عنده فحسب ، بل جعل معبوده من دون الله هو الأصل فوحده بالقصد والطلب ، وقد قال تعالى : ﴿**ومن أضل ممن يدعو من دون الله من لا يستجيب له إلى يوم القيامة**﴾ . ولم يكن كذلك شرك الأولين ، بل كانوا يتخذون الأنداد من دون الله لتقربهم هي إليه ، فهو الإله الأكبر ، أو «إله الآلهة» كما كانوا يصفونه سبحانه ، وقد كانوا يعبدونه ويتقربون إليه بأنواع القربات مما ورثوه من بقايا ملة إبراهيم عليه

السلام ، وكانوا يخلصون له الدين في الشدة ويجأرون إليه بالدعاء ، ثم هم يشركون معه آلهتهم في وقت الأمن والرخاء .

أما المخالف فقد صرح في أكثر من موضع من كتابيه بإخلاص العبادة للمخلوق وحده دون الخالق ، فهو يسأله كل حاجاته ، كما قال : توجه رسول الله في كل حاجة ، وكقوله : ولذ به من كل ما تشتكي ، ويدعوه في كل مكان وحال ، كما قال : يا ذا الفضل والجود والإحسان في بحر وبر ، وكما قال : أنت ملاذنا لدى اليسر والإعسار والسهل والصعب ، وكقوله : فلأنت في الدنيا وفي الأخرى وفي كل المواطن عدتي ونذائي .

وصرح بأنه لا ملجأ إلى غير الشريك فقال : عجل بإذهاب الذي أشتكي فإن توقفت فمن ذا أسأل؟ وقال : فإنني عنك يا مولاي لم أحد ، وقال : هذا نزيلك أضحى لا ملاذ له إلا جنابك .

والجامع لهذا المعاني كلها كلمة واحدة هي : لا ألجأ إلاّ إليك .

قلت : فأي الفريقين أعظم في الكفر والشرك والشقاق : الذين عبدوا الآلهة وتقربوا إليها بالدعاء والالتجاء ، لتقربهم هي إلى الله في حال الرخاء ، ووحدوا خالقهم وأخلصوا له الدين ونسوا الآلهة في حال الكرب وشدة الغم حين تعود إليهم الفطرة وتذهب عنهم السكرة فيقولون : ﴿**لئن أنجانا من هذه لنكونن من الشاكرين**﴾؟ أم الذي أخلص الدعاء والرجاء لإلهه ومعبوده من دون الله ، وصرف إليه قلبه ووجه إليه وجهه وقصده في كل وقت وفي كل حين؟

* **ويقول المخالف :**

بذلّي بإفلاسي بفقري بفاقتي إليك رسول الله أصبحت أهرب

(شفاء الفؤاد ص٢٠٥)

ويقول :

فأقل عثار عُبيدك الدّاعي الذي يرجوك إذ راجيك غير مخيب
واكـــتب له ولوالديه براءة من حـر نار جـهنم المتـهلب
واقمع بحولك باغضيه وكل من يؤذيه من متـمرد متـعصب
واشـفع له ولمن يليـه وقم بهم في كل حالٍ يا شـفيع المذنب

(شفاء الفؤاد ص٢١٣)

قلت : وهذا تأكيد منه وإصرار على تماديه في الضلال ، إذ يصرح هذا المخالف بخالص الاتجاه لصاحب القبر ، فيسأله العفو والنجاة من النار ، وأن يقمع بحوله باغضيه ، ويتوسل في دعائه وندائه واستغاثته بإظهار الذلة والعبودية والفقر!! ولا حول ولا قوة إلا بالله . (الذخائر ص٤٥ والشفاءص٢٢٨) .

أما سمعته يقول : (عُبيدك)؟! هكذا ، بأسلوب التصغير ، مبالغة في العبودية ، فطغى به وزاد على عبدة الأصنام والأوثان والمبتدعة ، الذين كانوا يسمّون أولادهم : عبدالعزى وعبدالكعبة وعبدمناة وعبدالمسيح وعبدالرضا وعبد النّبي .

وأوضح منه لبيان المقصود ، إضفاؤه صفات الربوبية والألوهية على

العبد المخلوق ، إذ سأله ما هو من خصائص الرب عز وجل ، الذي يملك وحده من العفو عن الذنب ومغفرة العيوب ما لا يملكه ملك مقرب ولا نبي مرسل .

ثانياً : الشرك في الربوبية

قد ذكرنا من قبل أن شرك الأولين كان في الألوهية والعبادة ، وأما الربوبيـة ، وهي الاعـتـقـاد بأن الله هو الخـالق الرازق والمدبر للأمـر المتصرف في الكون ، وأن بيـده مقاليد كل شيء وأنه يجير ولا يجار عليه ، فكانوا مقرين بها ، كما أخبر الله عنهم في أكثر من موضع في كتابه ، فقال تعالى : ﴿**ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض ليقولن الله**﴾ وقال تعالى : ﴿**قل من رب السموات السبع ورب العرش العظيم . سيقولون لله قل أفلا تتقون . قل من بيده ملكوت كل شيء وهو يجير ولا يجار عليه إن كنتم تعلمون . سيقولون لله قل فأنى تسحرون**﴾ وقال تعالى : ﴿**قل من يرزقكم من السماء والأرض أمن يملك السمع والأبصار ومن يخرج الحي من الميت ويخرج الميت من الحي ومن يدبر الأمر فسيقولون الله فقل أفلا تتقون**﴾ ، وقال تعالى : ﴿**وما يؤمن أكثرهم بالله إلا وهم مشركون**﴾ .

قال ابن عباس رضي الله عنهما : «من إيمانهم إذا قيل لهم : من خلق السماء؟ ومن خلق الأرض؟ ومن خلق الجبال؟ قالوا : الله ، وهم مشركون» . وقال مجاهد رحمه الله : «إيمانهم قولهم : الله خالقنا ويرزقنا ويميتنا ، فهذا إيمان مع شرك عبادتهم غيره» (تفسير ابن جرير ص ١٦/٢٨٦-٢٨٧) .

فكان يكفي المخالف أن يقتصر على شرك العبادة فيكون في عداد أولئك المشركين ، إلا أنه أبى واستكبر ، وأصر على الانحطاط في دركات أبعد في الشرك والكفر فأضفى على النبي ﷺ خصائص الرب العُلى ، ونازعه في أفعاله وصفاته وأسمائه الحسنى . ومن أمثلة ذلك :

١- قوله في وصف النبي ﷺ : الخليفة الأكبر الممد لكل موجود (الذخائر ص٢٣٣) .

وصحّ عن النبي ﷺ في دعاء السّفر : «اللهم أنت الصاحب في السفر والخليفة في الأهل» (رواه مسلم ٩٩٨) .

٢- وقول المخالف أيضاً في معرض حديثه عن خصائص النبي ﷺ : وكان يُقطع الأراضي قبل فتحها لأن الله ملكه الأرض كلها ، وله أن يقطع أرض الجنة من باب أولى ﷺ . (الذخائر ص٢٢٣) .

قلت : وهذا من الشرك الصريح في الربوبية ، إذ إن الذي يملك الأرض والجنّة هو الله وحده لا أحد سواه .

* وقد تواترت آيات الذكر الحكيم على تقرير ملكية الله تعالى للسموات والأرض وما بينهما في أكثر من ثلاثين موضعاً ، كقوله تعالى : ﴿**ألم تعلم أن الله له ملك السموات والأرض**﴾ وقوله تعالى : ﴿**لله ما في السموات وما في الأرض**﴾ ، وقوله تعالى : ﴿**ولله ميراث السموات والأرض**﴾ ، وقوله تعالى : ﴿**قل لمن ما في السموات والأرض قل لله**﴾ ، وكقوله تعالى : ﴿**له ما في السموات وما في الأرض وما بينهما وما تحت الثرى**﴾ وقوله : ﴿**له مقاليد**

السموات والأرض﴾ ، وقوله تعالى : ﴿ولله خزائن السموات والأرض ولكن المنافقين لا يفقهون﴾ .

وقد رد الله عز وجل بهذه الآية على المنافقين القائلين : ﴿لا تنفقوا على من عند رسول الله حتى ينفضوا﴾ ، فلو كان للنبي ﷺ شرك في الأرض لناسب ذكره في هذا الموضع ، إعلاماً لقدر نبيه ﷺ وتبكيتاً لعدوه الذي أراد بمقالته تلك إزدراء النبي ﷺ ومن معه من فقراء أصحابه وتعييرهم بالفقر والحاجة .

وقال تعالى : ﴿قل ادعوا الذين زعمتم من دون الله لا يملكون مثقال ذرة في السموات ولا في الأرض وما لهم فيهما من شرك وما له منهم من ظهير﴾ .

قال ابن كثير رحمه الله في تفسيره : (بين تبارك وتعالى أنه الإله الواحد الأحد الفرد الصمد الذي لا نظير له ولا شريك له بل هو المستقل بالأمر وحده من غير مشارك ولا منازع ولا معارض ، فقال : ﴿قل ادعوا الذين زعمتم من دون الله﴾ أي من الآلهة التي عبدت من دونه ﴿لا يملكون مثقال ذرة في السموات ولا في الأرض﴾ كما قال تبارك وتعالى : ﴿والذين تدعون من دونه ما يملكون من قطمير﴾ .

وقوله تعالى : ﴿وما لهم فيهما من شرك﴾ أي : لا يملكون شيئاً استقلالاً ولا على سبيل الشركة ، ﴿وما له منهم من ظهير﴾ أي وليس لله من هذه الأنداد من ظهير يستظهر به في الأمور ، بل الخلق

كلهم فقراء إليه عبيد لديه) ا هـ ٣/٥٣٦ .

قلت : فهذه الأية من أوضح البيان على المطلوب ، إذ صرحت بنفي ملكية شيء في السموات والأرض ولو كان مثقال ذرة ، عن كل الأنداد المعبودة من دون الله من الملائكة والأنبياء والصالحين لا استقلالاً ولا على سبيل الشركة .

إذاً فمن زعم أن أحداً من الخلق يملك ذرة في هذا الكون مع الخالق ، فقد أشرك شركاً بيّناً وافترى إثماً عظيماً وكذّب بالقرآن تكذيباً مبيناً ، فكيف بمن زعم أن الأرض كلها ملك خالص للمخلوق يتصّرف فيها وفي الجنة كما يشاء .

وحسب هذا القائل إثماً وظلماً أن يكفر بما آمن به عبدة الأوثان في الجاهلية الأولى ، الذين شهد لهم القرآن إقرارهم بربوبية الخالق وملكيته التامة للأرض ومن فيها ، قال الله تعالى : **﴿قل لمن الأرض ومن فيها إن كنتم تعلمون . سيقولون لله قل أفلا تذكرون﴾** .

قال ابن كثير رحمه الله في تفسيره : «يقرر تعالى وحدانيته واستقلاله بالخلق والتصرف والملك ؛ ليرشد إلى أنه الله الذي لا إله إلا هو ، ولا تنبغي العبادة إلا له وحده لا شريك له ، ولهذا قال لرسوله محمد ﷺ أن يقول للمشركين العابدين معه غيره المعترفين له بالربوبية وأنه لا شريك له فيها ، ومع هذا فقد أشركوا معه في الإلهية فعبدوا غيره مع اعترافهم أن الذين عبدوهم لا يخلقون شيئاً ولا يملكون شيئاً ولا يستبدون بشيء بل اعتقدوا أنهم يقربونهم إليه زلفى

﴿ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى﴾ ، فقال : ﴿قل لمن الأرض ومن فيها﴾ أي : مَنْ مالكها الذي خلقها ومن فيها من الحيوانات والنباتات والثمرات وسائر صنوف المخلوقات ﴿إن كنتم تعلمون . سيقولون لله﴾ أي : فيعترفون لك بأن ذلك لله وحده لا شريك له ، ﴿قل أفلا تذكرون﴾ أنه لا تنبغي العبادة إلا للخالق الرازق لا لغيره» ا هـ ٢٥٢/٣ .

فظهر بهذا أن المخالف ومن على شاكلته من دعاة السوء يفعلون ويقولون ما هو أشد كفراً وأعظم شركاً من المشركين الأولين .

* وإذا كان الخالق سبحانه قد نزَّه نفسه عن الشريك في أمر حقير ، وهي أرض الدنيا الفانية ، التي لا تعدل عند الله جناح بعوضة ، فكيف يُملّك أرض الجنة العظيمة الخالدة أحداً من خلقه؟

فقول المخالف : إن النبي ﷺ يملك حق الإقطاع في أرض الجنة ، ظاهر السقوط ، مع ما فيه من الكفر والمخالفة لنصوص الوحي المصرحة بملكية الخالق وحده وأحقيته في التصرف بما يشاء في الجنة وما فيها ، لا شريك له في شيء من ذلك . قال تعالى : ﴿تلك الجنة التي نورث من عبادنا من كان تقياً﴾ .

وأخبر سبحانه عن أصحاب الجنة قولهم : ﴿وقالوا الحمد لله الذي صدقنا وعده وأورثنا الأرض نتبوأ من الجنة حيث نشاء فنعم أجر العاملين﴾ .

قال القرطبي رحمه الله في تفسيره : «قيل : إنهم ورثوا الأرض

التي كانت تكون لأهل النار لو كانوا مؤمنين» ا هـ ٢٨٧/١٥ . وجاء في دعاء خليل الرحمن عليه السلام قوله : ﴿**واجعلني من ورثة جنة النعيم**﴾ . وقال سبحانه : ﴿**يا أيتها النفس المطمئنة ارجعي إلى ربك راضية مرضية فادخلي في عبادي وادخلي جنتي**﴾ .

والأدلة من القرآن على ملكية الله الخالصة للجنة أجلّ من أن تحصر ومن السنة كذلك ؛ فقد جاء في حديث احتجاج الجنة والنار قول الله تبارك وتعالى للجنة : «أنت رحمتي أرحم بك من أشاء من عبادي» وجاء في آخر الحديث قول النبي ﷺ : «وأما الجنة فإن الله عز وجل ينشيء لها خلقاً» متفق عليه .

* وقد أخبر النبي ﷺ في حديث الرؤيا الطويل حين أتاه في المنام آتيان فأخذاه فانطلقا به حتى رأى قصراً مثل الربابة البيضاء ، فقالا له : هذا منزلك ، فقال النبي ﷺ : «قلت لهما : بارك الله فيكما ذراني فأدخله ، قالا : أما الآن فلا ، وأنت داخله» الحديث رواه البخاري .

وفي منعه ﷺ من دخول قصره ومنزله في الجنة مع تمنيه ورغبته ، دليل آخر يؤكد كذب دعوى المخالف وزعمه أنه ﷺ يملك حق الإقطاع في الجنة للغير ، كيف وهو لم يعلم أصلاً أن ذلك منزله حتى أخبر؟

وفي ترغيب النبي ﷺ وحثه أمته علي أن يسألوا الله عز وجل له الوسيلة دليل آخر على اختصاص الله وحده دون خلقه بكامل نعيم الجنة وثوابها ، [وذلك في حديث جابر من قول النبي ﷺ : « . . . ثم

سلوا الله لي الوسيلة فإنها منزلة في الجنة لا تكون إلا لعبد وأرجو أن أكون أنا هو . . .» رواه مسلم] .

فالأمر والله أوضح من أن يحتاج إلى إيضاح وأبين من أن يفتقر إلى بيان .

٣- ومن الخصائص النبوية المزعومة قول المخالف : (وأوتي علم كل شيء حتى الروح والخَمْس التي في آية ﴿**إن الله عنده علم الساعة**﴾) (الذخائر ص٢٠٥) .

وقال في موضع آخر : (إذ لا فرق بين موته وحياته في مشاهدته لأمته ومعرفة أحوالهم ونياتهم وعزائمهم وخواطرهم وذلك عندي جلي لا خفاء فيه) (شفاء الفؤاد ص٧٩ ، ٩٧) .

قلت : بل هذا شرك واضح جلي لا خفاء فيه ، ومنازعة صريحة للرب سبحانه في أخص صفاته ، صفة العلم ، حيث سّوى علم المخلوق بعلم الخالق افتراء عليه وتكذيباً لكلامه ، قال عز وجل : ﴿**إن الله عنده علم الساعة وينزل الغيث ويعلم ما في الأرحام وما تدري نفس ماذا تكسب غداً وما تدري نفس بأي أرض تموت إن الله عليم خبير**﴾ .

فهذه مفاتح الغيب التي اختص الله بعلمها دون خلقه كما قال تعالى : ﴿**وعنده مفاتح الغيب لا يعلمها إلا هو ويعلم ما في البر والبحر وما تسقط من ورقة إلا يعلمها ولا حبة في ظلمات الأرض ولا رطب ولا يابس إلا في كتاب مبين**﴾ .

فقوله سبحانه : ﴿**لا يعلمها إلا هو**﴾ صريح في نفي علمها عن أحد سواه لا ملك ولا رسول .

وقال سبحانه لعبده ورسوله محمد ﷺ : ﴿**قل لا يعلم من في السموات والأرض الغيب إلا الله وما يشعرون أيان يبعثون**﴾ ، وقال سبحانه : ﴿**قل لا أقول لكم عندي خزائن الله ولا أعلم الغيب ولا أقول لكم إني ملك إن أتبع إلا ما يوحى إلي قل هل يستوى الأعمى والبصير أفلا تتفكرون**﴾ ، وقال تعالى له : ﴿**قل لا أملك لنفسي نفعاً ولا ضراً إلا ما شاء الله ولو كنت أعلم الغيب لاستكثرت من الخير وما مسني السوء إن أنا إلا نذير وبشير لقوم يؤمنون**﴾ .

وأما عن الروح فاسمع إلى القول الفصل إذ يقول الرب عز وجل : ﴿**ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربي وما أوتيتم من العلم إلا قليلاً**﴾ .

وقال تعالى عن الساعة : ﴿**يسألونك عن الساعة أيان مرساها قل إنما علمها عند ربي لا يجليها لوقتها إلا هو ثقلت في السموات والأرض لا تأتيكم إلا بغتة يسألونك كأنك حفي عنها قل إنما علمها عند الله ولكن أكثر الناس لا يعلمون**﴾ ، وقال تعالى : ﴿**يسألك الناس عن الساعة قل إنما علمها عند الله وما يدريك لعل الساعة تكون قريباً**﴾ . وقال تعالى : ﴿**يسألونك عن الساعة أيان مرساها . فيم أنت من ذكراها . إلى ربك منتهاها . إنما**

منذر من يخشاها﴾ .

فالله عز وجل يقرر أن عبده ورسوله محمداً ﷺ لا يعلم الساعة ولا الروح ، ويأمره أن يخبر الناس جميعاً بذلك ، ثم يأتي هذا التائه ليُكذب بآيات الله ويعترض على أمره وحكمه .

وقد نفى الله علم الغيب عن الخلق جميعاً فقال تعالى : **﴿قل لا يعلم من في السموات والأرض الغيب إلا الله وما يشعرون أيان يبعثون﴾** .

وقد يطلع الله رسله على شيء من الغيب فيما أرسلوا به قال تعالى : **﴿قل إن أدري أقريب ما توعدون أم يجعل له ربي أمداً . عالم الغيب فلا يظهر على غيبه أحداً . إلا من ارتضى من رسول فإنه يسلك من بين يديه ومن خلفه رصداً . ليعلم أن قد أبلغوا رسالات ربهم وأحاط بما لديهم وأحصى كل شيء عدداً﴾** .

فدلت آيات الكتاب على اختصاص الرب وحده بعلم الغيب وأن الذي علمه الرسل منه إنما علموه من أنباء الله ، واستأثر الله بما شاء من العلوم فلم يطلع أحداً عليها ، ومنها مفاتح الغيب الخمس والروح وعلم ما في الصدور .

وجاءت السنة لتؤيد ما في القرآن ، فمن ذلك :

حديث عبدالله بن عمر رضي الله عنهما ، أن رسول الله ﷺ قال : «مفاتيح الغيب خمس لا يعلمها إلا الله ، لا يعلم ما في غد إلا الله ، ولا يعلم ما تغيض الأرحام إلا الله ، ولا يعلم متى يأتي المطر

أحـد إلا الله ، ولا تدري نفس بأي أرض تموت ، ولا يعلم متى تقوم الساعة إلا الله» (رواه البخاري ٣٧٥/٨) .

ومن ذلك حديث الربيع بنت معوذ ، رضي الله عنها ، لما قالت إحدى الجويريات وهي تغني : (وفينا نبي يعلم ما في غد) قال لها النبي ﷺ : «دعي هذه وقولي بالذي كنت تقولين» (رواه البخاري٢٠٢/٩) .

٤- ومن الخصائص المزعومة قول المخالف عن النبي ﷺ : (إنه كان يسمع حفيف أجنحة جبريل وهو بعد في سدرة المنتهى ويشم رائحته إذا توجه بالوحي إليه) (الذخائر ٢٢٨) .

وقوله أيضاً :

يا من نناديه فيسمعنا على بعد المسافة سمع أقرب أقرب

(من شفاء الفؤاد ص٢١٢)

ويكفي في الجواب عن هذا الهراء ، أن يقال لصاحبه : من أين لك أنه ﷺ كان يسمع حفيف أجنحة جبريل ويشم رائحته من سدرة المنتهى؟ وقد قال الله تعالى : ﴿**إنما يفتري الكذب الذين لا يؤمنون بآيات الله وأولئك هم الكاذبون**﴾ .

وليس ببدع من هذا المخالف أن يخترع ما شاء ويتقول على الله وعلى رسوله وعلى ملائكته ما شاء ، فهذا ديدنه وتلك طريقته . أما صفة السمع المطلق فلا تليق إلا بالله وحده لا شريك له ، والله سبحانه وتعالى وحده الذي وسع سمعه الأصوات ، سواء في ذلك القريب

الداني والبعيد النائي .

قال تعالى : ﴿**سواء منكم من أسر القول ومن جهر به ومن هو مستخف بالليل وسارب بالنهار**﴾ .

٥- وقال المخالف في مدح النبي ﷺ :

بنور رسول الله أشرقت الدنا ففي نوره كل يجيء ويذهب

(شفاء الفؤاد ص٢٠٥)

وقال أيضاً :

أنت سر الله والنور الذي سار موسى نحوه في طور سين

فهو نور لا يسامى إنه قبس من نور رب العالمين

كيف لا والسيد الهادي به يغمر الدنيا بنور مستبين

(شفاء الفؤاد ص٢٣٢)

وهذه منازعة للرب في صفة من صفاته ، صفة النور ، التي وصف بها نفسه ووصفه بها عبده ورسوله محمد ﷺ ، كما أن فيه تكذيباً صريحاً لكلام الله عز وجل وكلام رسوله ﷺ .

فقد قال سبحانه في محكم التنزيل : ﴿**الله نور السموات والأرض**﴾ .

وقال الله تعالى : ﴿**وأشرقت الأرض بنور ربها**﴾ . والمخالف يقول : (بنور رسول الله أشرقت الدنا) .

وفي الصحيحين من حديث ابن عباس ، رضي الله عنهما ، أن

النبي ﷺ كان إذا قام من الليل قال : «اللهم لك الحمد أنت نور السموات والأرض . . .» الحديث متفق عليه .

* وعن أبي ذر ، رضي الله عنه ، قال : سألت رسول الله ﷺ : هل رأيت ربك؟ قال : «نور أنَّى أراه» ، وفي لفظ : «رأيت نوراً» (رواه مسلم ح١٧٨) .

قال العلامة ابن القيم رحمه الله :(وقد فُسر قوله تعالى : ﴿**الله نور السموات والأرض**﴾ بكونه منوِّر السموات والأرض ، وهادي أهل السموات والأرض ، فبنوره اهتدى أهل السموات والأرض ، وهذا إنما هو فعله ، وإلا فالنور الذي هو من أوصافه قائم به ، ومنه اشتق له اسم النور الذي هو أحد الأسماء الحسنى) (التفسير القيم ص٣٧٥ ، ٣٧٦) .

فصل ﴿وذروا الذين يلحدون في أسمائه﴾

لم يكف المخالف شركاً بالرب عز وجل في صفاته وأفعاله ، حتى أضاف إليه شركاً أكبر وكفراً أعظم ، فعمد إلى أسماء الله الحسنى ، التي خص بها نفسه من دون خلقه واتصف بها وجعلها علماً لذاته المقدسة ، فأشرك معه فيها بعض خلقه ، ظلماً وزوراً .

فمن أذكار السلام التي ابتدعها المخالف عند زيارة القبر النبوي ، قوله : (السلام عليك يا أول ، السلام عليك يا آخر ، السلام عليك يا باطن ، السلام عليك يا ظاهر) (شفاء الفؤاد ص١٢٠) .

وغلا أكثر من ذلك ، فذكر من الخصائص النبوية أنه ﷺ : (سمّي من أسماء الله تعالى بنحو سبعين إسماً) (الشفاء ص١٢٦) .

ثم لم يكفه ذلك الغلو ، فانتهى به الحال إلى أن قال : (فالأسماء الإلهية له أيضاً أسماء) (الذخائر ص٢٠٢) .

فأشرك النبي ﷺ مع الله في كل أسمائه الحسنى ، إمعاناً في الضلال ومخالفة للمعلوم ضرورة من دين الإسلام .

قال الله في محكم التنزيل : **﴿ولله الأسماء الحسنى فادعوه بها وذروا الذين يلحدون في أسمائه سيجزون ما كانوا يعملون﴾** .

وذكر ابن جرير وغيره من المفسرين أن إلحاد المشركين في أسماء الله كان بعدولهم بها عما هي عليه ، فاشتقوا منها أسماء لآلهتهم

كتسميتهم اللات من «الله» ، والعزى من «العزيز» ، ومناة من «المنان» (فتح القدير للشوكاني ٢٦٨/٢) .

وذكر ابن القيم رحمه الله من أنواع الإلحاد في أسماء الله : أن يسمى الأصنام بها ، كتسمية المشركين اللات من الإلهية والعزى من العزيز ، وتسميتهم الصنم إلهاً . قال : «وهذا إلحاد حقيقة ، فإنهم عدلوا بأسمائه إلى أوثانهم وآلهتهم الباطلة» (بدائع الفوائد ١٦٩/١) .

قلت : فإذا كانت تسمية الأصنام والأوثان ببعض أسماء الله عز وجل ، ولو كان اسماً واحداً ، يعد إلحاداً وكفراً وشركاً ، فكيف بمن سمى مخلوقاً بكل أسماء الله تعالى؟

وإذا كان اشتقاق اسم من الأسماء الحسنى وإطلاقه على المعبود من دون الله ، كاللات والعزى ، يلحق فاعله بالمشركين ويصيره في عداد الملحدين المتوعدين بالعقاب ، فكيف بمن أطلق نفس الأسماء الإلهية على المخلوق ، فسماه الأول والآخر والظاهر والباطن ، إلى أن أوصلها إلى السبعين؟

كيف وقد زادها إلى أن شملت كل الأسماء دون استثناء ، فدخل فيها حتى الاسم الأعظم «الله» ، الذي لم يعرف في تاريخ الشرك الطويل ، أن أحداً اجترأ على هذا الاسم فتسمى به أو أطلقه على أحد من الآلهة المزعومة من دون الله؟

(الباب الثاني)

الافتراء على الملائكة الكرام

وبعد ، فهل اكتفى المخالف بكل الذي تقدم من كفر واضح جلي ، وشرك فاضح صريح؟

كلا ، بل أضاف إليه ، أن رمى بالكفر والشرك والظلم أبعد الخلق عنه وعن كل معصية وإثم ، ملائكة الرحمن الكرام .

ولم يقصر ظلمه وقذفه لهم على طائفة منهم ، بل شملهم كلهم حتى جبريل الأمين عليه السلام .

* فمن الخصائص النبوية المختلفة ، عد المخالف منها : (ذكر الملائكة له في كل ساعة) (الذخائر ٢٠٢) .

وقال في شفاء الفؤاد ص٢١٦ :

لسناك حين بدا بآدم أقبلت رعياً لسيماك الملائك تسجد

وقال في شفاء الفؤاد ص٢٣٥ :

كلما لحت للملائك خرّوا في السموات سجداً وبكيا

* ولما ذكر تلك الصيغة الشركية من صيغ السلام المبتدع قولها عند القبر : (السلام عليك يا أول ، السلام عليك يا آخر ، السلام عليك يا باطن ، السلام عليك يا ظاهر) ، قال بعدها : (ويقال : إن ذلك من تحية جبريل للنبي ﷺ) (شفاء الفؤاد ١٢٠) .

قلت : وهذا غاية في الظلم والإفك والبهتان ، **أن** ينسب مثل هذا الكفر إلى البررة الكرام المطهرين من كل عيب المعصومين من كل معصية وذنب ، كما شهد لهم بذلك الرب ، فقال عز وجل : ﴿**لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون**﴾ .

ولا ينقضي العجب من جرأة هذا المخالف وإقدامه على مثل هذا الكذب الواضح المكشوف ، إذ من أين له أن من خصائص النبي عليه الصلاة والسلام ذكر الملائكة له في كل ساعة؟ ومن أوحى إليه بهذه الفرية؟ وما نوع الذكر الذي كانوا يذكرون به النبي ﷺ ؟ أهو التسبيح والتكبير والتحميد؟ أم هو ذكر آخر من غير جنس الأذكار المعروفة؟!

ومما يؤكد أن المخالف يقصد معنى آخر غير الصلاة ، ما تقدم من خصائصة المزعومة التي صرح فيها بمذهبه ومعتقده في الرسول ﷺ ومضاهاته بالله سبحانه في خصائص الألوهية والربوبية .

ويؤكده أيضاً ، قوله السابق عن الملائكة الكرام وعن جبريل عليه السلام ، فليس الذكر لغير الله بأعظم من السجود لغيره والإلحاد في أسمائه الحسنى .

* وقد تضمن قول المخالف : (لسناك حين بدا بآدم أقبلت ، رعياً لسيماك الملائك تسجد) جملة من المخالفات :

منها : أن فيه مخالفة لكلام الله تعالى ، إذ تواترت الآيات على ذكر خبر سجود الملائكة لآدم وأنه كان طاعة للخالق سبحانه إذ أمرهم

بذلك السجود ، كما في قوله تعالى : ﴿**وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس أبى واستكبر وكان من الكافرين**﴾ .

وجاء في حديث الشفاعة الطويل : أن الناس يقولون لآدم عليه السلام : «أنت أبو البشر ، خلقك الله بيده ونفخ فيك من روحه وأمر الملائكة فسجدوا لك» متفق عليه .

فاتفقت نصوص القرآن والسنة على أن سجود الملائكة كان لآدم لا لغيره من البشر .

وعارض المخالف تلك الأخبار كلها وزعم أن السجود كان من أجل سناه ﷺ .

قال الله تعالى : ﴿**فمن أظلم ممن كذب على الله وكذب بالصدق إذ جاءه أليس في جهنم مثوىً للكافرين**﴾ .

ومنها : أن فيه اعتراضاً على قدر الله وحكمه وأمره .

فقد قضى الله عز وجل أن يكون سجود ملائكته لآدم دون غيره ، وأمرهم بذلك فأطاعوا له وأذعنوا كلهم أجمعون ، إلا إبليس اللعين أبى واستكبر وقال : ﴿**أنا خير منه خلقتني من نار وخلقته من طين**﴾ .

* وأما قول المخالف : (كلما لحت للملائك خروا ، في السموات سجداً وبكياً) . فهو أعظم في الإفك وأبلغ في الظلم والافتراء .

وحسبنا في الرد على هذه الفرية النكراء أن نسأل هذا المخالف :

من أين جاءه خبر ذلك السجود المزعوم؟ آلله أمر الملائكة بذلك؟ فأين دليله من الكتاب أو السنة؟

أم فعلته الملائكة من غير أمر ولا إذن؟ كلا ﴿**بل عباد مكرمون . لا يسبقونه بالقول وهم بأمره يعملون**﴾ . قال ابن كثير رحمه الله في تفسيره : «أي لا يتقدمون بين يديه بأمر ولا يخالفونه فيما أمرهم به بل يبادرون إلى فعله» (١٧٦/٣) .

عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : قال رسول الله ﷺ لجبريل عليه السلام : «ما يمنعك أن تزورنا أكثر مما تزورنا؟» . فأنزل الله تعالى قوله : ﴿**وما نتنزل إلا بأمر ربك له ما بين أيدينا وما خلفنا وما بين ذلك وما كان ربك نسياً**﴾ (رواه البخاري ٤٢٨/٨) .

قال الحافظ ابن حجر : (الأمر في هذه الآية معناه الإذن بدليل سبب النزول المذكور) (فتح الباري ٤٢٩/٨) .

قلت : فإذا كانوا لا يجترئون على زيارة النبي ﷺ إلا بإذن من الله جل وعلا ، فما بالك بالسجود والخضوع والتعظيم والبكاء الذي لم ينزل الوحي بخبره ، ولا ينبغي إلا للواحد الأحد سبحانه وتعالى؟

* تكميل : قول المخالف : (كلما لحت للملائك خرّوا . في السموات سجداً وبكياً) يعني به فيما يظهر ليلة المعراج عندما اجتاز النبي ﷺ السموات السبع ، وهو مع ما فيه من الظلم والبغي والعدوان ، ففيه أيضاً خلاف ما أخبر به النبي ﷺ في الحديث

الصحيح ، فقد أخرج الشيخان من حديث أبي ذر رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال ، في حديثه عن الإسراء والمعراج : «فلما جئت إلى السماء الدنيا قال جبريل لخازن السماء : افتح ، قال من هذا؟ قال هذا جبريل ، قال هل معك أحد؟ قال : نعم معي محمد ﷺ ، فقال أو أرسل إليه؟ قال : نعم . فلما فتح علونا السماء الدنيا . . . » الحديث متفق عليه .

فإن قيل : كيف تعدّون سجود الملائكة للنبي ﷺ شركاً ، وهم قد سجدوا لآدم عليه السلام؟

فالجواب من وجوه :

الأول : أن سجود الملائكة لآدم كان طاعة لأمر الله وعبادة له ، قال ابن جرير في تفسيره : (كان سجود الملائكة لآدم تكرمة لآدم وطاعة لله ، لا عبادة لآدم) ، ثم روى بإسناده عن قتادة أنه قال : (فكانت الطاعة لله والسجدة لآدم ، أكرم الله آدم أن أسجد له ملائكته) (٥١٢/١) .

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية : (أما السجود فشريعة من الشرائع ، إذ أمرنا الله تعالى أن نسجد له ، ولو أمرنا أن نسجد لأحد من خلقه غيره لسجدنا لذلك الغير طاعة لله عز وجل . فسجود الملائكة لآدم عبادة لله وطاعة له وقربة يتقربون بها إليه ، وهو لآدم تشريف وتكريم وتعظيم ، وسجود إخوة يوسف له تحية وسلام) ا هـ (مجموع الفتاوى ٤٦٠/٤-٤٦١) .

قلت : ومما يدل على أن سجود الملائكة لآدم **تكريم له** ، احتجاج إبليس اللعين على ربه حين امتنع عن السجود ، فقال : ﴿**قال أرأيتك هذا الذي كرمت عليّ لئن أخرتن إلى يوم القيامة لأحتنكن ذريته إلا قليلاً**﴾ .

فإذا تقرر أن السجود لآدم كان تكريماً له لا غير ، وأنه كان بأمر الله وإذنه ، فقياس غيره عليه شرك في التشريع كما هو ظاهر ، وبمثل هذا القياس الفاسد كان ضلال أكثر الأمم . قال الله عز وجل : ﴿**أم لهم شركاء شرعوا لهم من الدين ما لم يأذن به الله**﴾ .

فَمَن جَوَّز سجود الملائكة لغير آدم من البشر قياساً عليه ، فقد نصب نفسه مشرّعاً مع الله سبحانه ، وهذا هو عين الشرك والكفر والضلال .

ويمكن على هذا القياس الفاسد أن يقول قائل : أمر الله بالطواف بالبيت الحرام والحج إليه ، فيقاس عليه الأحجار والأشجار والقبور ونحوها مما يعظمه الناس ، فيحج إليها ويطاف بها كذلك . ويقال أيضاً : شرع الله النسك في الفدية والاضحية والعقيقة ، فيقاس عليه النحر والعقر للمعظمين من الطواغيت .

ولو استطردنا في ذكر القياسات الفاسدة التي تتحصل من وراء ذلك القول الباطل لأفضى بنا إلى التطويل والإملال . وحسبك أن تعلم أن هذا مثل قياس المشركين الأولين ، عبّاد ودّ وسواع ويغوث ويعوق ونسر ، وبمثله حرَّموا وأحلوا ما شاءوا بأهوائهم ، إذ قالوا : ما ذَبح الله وقتل خير مما ذبحتم وقتلتم ، فأحلوا الميتة بهذا القياس الفاسد .

قال الله تعالى : ﴿**ولا تأكلوا مما لم يذكر اسم الله عليه وإنه لفسق وإن الشياطين ليوحون إلى أوليائهم ليجادلوكم وإن أطعتموهم إنكم لمشركون**﴾ .

الوجه الثاني : أن هذا المخالف لم يقتصر في زعمه على السجود المجرد بل قرنه بالبكاء ، وهو قرينة بينة على أن قصده بذلك ما هو أعلى من مجرد التشريف والتكريم أو التحية ، وهو السجود الآخر الذي هو عبادة محضة ولا ينبغي إلا لله وحده .

وقد عصم الله عز وجل ملائكته الكرام من أن يشركوا به أحداً من خلقه بأي نوع من أنواع الشرك ، بل هم معصومون من مطلق العصيان ، فلا تجوز عليهم المحقرات فضلاً عن الموبقات ، ولا يصدر عنهم حتى الصغائر فكيف بأكبر الكبائر؟

بل هذا مثل قول المخالف إن تحية جبريل للنبي ﷺ (السلام عليك يا أول ، السلام عليك يا آخر ، السلام عليك يا باطن ، السلام عليك يا ظاهر) ، وهو كسابقه في الإفك والافتراء على المكرمين من أهل السماء ، وحاشا جبريل الأمين عليه السلام من اقتراف مثل هذا الكفر والإلحاد في الأسماء ، وهذه نصوص السنة بين أيدينا ، ليس فيها نص واحد صحيح ولا ضعيف ولا موضوع ، يذكر خطاب جبريل عليه السلام للنبي ﷺ بمثل هذا القول المختلق ولو مرة واحدة . وأكثر خطابه له ومناداته إياه كان «يا محمد» وربما قال «يا رسول الله» ، أما أن يقول له : «يا أول . . . يا آخر . . . يا باطن . . . يا ظاهر» فلا والله ، ما كفر جبريل ولكن الشياطين كفروا .

(الباب الثالث)

نقض أركان الإيمان

﴿كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله﴾

تقدم أن المخالف قد نقض أعظم أسس الإيمان وأول أركانه ، وهو الإيمان بالله ، إذ أشرك به سبحانه في إلهيته وربوبيته وأسمائه وصفاته ، فلم يكتف بهدم ذلك الركن الأعظم ، بل نقض غيره من أركان الإيمان ، وهاك البيان :

١- فالإيمان بالملائكة : يقتضي الإيمان بأنهم خلق لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون ، وأن لهم أعمالاً ووظائف كلفوا بها هم لها عاملون : ﴿**لا يسبقونه بالقول وهم بأمره يعملون**﴾ .

فكفر المخالف بذلك وزعم أنهم عصاة ماردون ، إذ أمروا بالسجود لآدم عليه السلام فسجدوا لمحمد ﷺ ، كلهم أجمعون .

وزعم أنهم عبدوا الرسول إذ كانوا يخرون له سجداً يبكون ، وأنهم كانوا يذكرونه من دون الله في كل ساعة .

ثم زعم أن جبريل عليه السلام أشرك في بعض أسماء الله تعالى ، إذ كان من تحيته للنبي ﷺ : (السلام عليك يا أول ، السلام عليك يا آخر ، السلام عليك يا باطن ، السلام عليك يا ظاهر) .

٢- والإيمان بالقرآن : وهو الإيمان بأنه كلام الله ووحيه المنزل على

عبده ورسوله ، لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، وأنه القول الفصل ليس بالهزل ، خبره صدق وحكمه عدل . فكفر المخالف بذلك كله ، فكذب خبره ونقض حكمه ، وحرف الكلم عن مواضعه وعكس دلالاته .

فسور القرآن كلها من «الفاتحة» إلى «الناس» تقرر مسائل الإيمان والتوحيد ، فجاء ينقض ذلك بالتكذيب تارة والتحريف تارة أخرى .

* جاء في سورة الفاتحة قول الله تعالى : ﴿**الحمد لله رب العالمين**﴾ ، وفي الأنعام : ﴿**قل أغير الله أبغي رباً وهو رب كل شيء**﴾ ، وفي مريم : ﴿**رب السموات والأرض وما بينهما**﴾ ، وفي الناس : ﴿**قل أعوذ برب الناس**﴾ ، إلى غير ذلك من الآيات والسور التي دلت على توحيد الخالق جل وعلا في ربوبيته . فزعم المخالف أن المخلوق هو : (رب الحور ، رب الجمال ، غياث الخلق ، غوث من في الخافقين ، ذو الفضل والجود والإحسان في البر والبحر ، معنى الوجود ، منبع الكرم والجود ، رأس الأمر وساسه . . .) .

وجاء في سورة الفاتحة قول الله سبحانه : ﴿**الرحمن الرحيم**﴾ ، وفي الأعراف : ﴿**ورحمتي وسعت كل شيء**﴾ ، وفي الأنعام : ﴿**وربك الغني ذو الرحمة**﴾ ، وفي فاطر : ﴿**ما يفتح الله للناس من رحمة فلا ممسك لها**﴾ . فزعم المخالف أن أصل كل رحمة تصعد أو تنزل مما يخص ويشمل ، هو رسول الله ﷺ .

وجاء في سورة الفاتحة قول الله عز وجل : ﴿**إياك نعبد وإياك نستعين**﴾ ، وفي سورة النساء : ﴿**واعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً**﴾ ، وفي سورة الزمر : ﴿**بل الله فاعبد وكن من الشاكرين**﴾ ، وفي سورة الجن : ﴿**فلا تدعوا مع الله أحداً**﴾ .

فناقض المخالف ذلك كله وقال : (توجه رسول الله في كل حاجة ، لنا ومهّم في المعاش وفي القلب) ، وقال : (يا سيدي إني رجوتك) ، (فأقل عثار عُبيدك) ، (واقمع باغضيه بحولك) ، وقال : (يا رسول الله عجل سيدي بزوال البؤس) ، (عجل بإذهاب الذي اشتكي) ، (لك وجهت وجهي) ، (يا منتهى أملي وغاية مطلبي) ، (نقبّل الترب إجلالاً لساكنه) ، (فقرى الواقف ببابه الشريف كقرى الواقف بعرفات) .

* وجاء في سورة النور قول الله تعالى : ﴿**الله نور السموات والأرض**﴾ ، وفي سورة الزمر : ﴿**وأشرقت الأرض بنور ربها**﴾ .

فنقض المخالف قول الله بقوله : (بنور رسول الله أشرقت الدنا ، ففي نوره كلٌّ يجيء ويذهب) ، وقوله : (أنت سر الله والنور الذي سار موسى نحوه في طور سين) .

٣- والإيمان بالرسول ﷺ : يقتضي محبته وطاعته واتباع سنته والتحاكم إليها وتقديمها على ما سواها من الأحكام والمذاهب والآراء .

أ- ولا يتم هذا الإيمان إلا بالتأدب مع رسول الله ﷺ بالآداب

المفروضة الواردة في الكتاب والسنة قبل المندوبة ، ورأس الأدب مع الرسول ﷺ : كمال التسليم له والانقياد لأمره ، وتلقي خبره بالقبول والتصديق ، وأن لا يقدم عليه آراء الرجال مهما علت مقاماتهم ، ولا يحاكم إلى غيره ولا يرضى بحكم غيره ولا يعرض قوله وحكمه على قول شيخه وإمامه ومذهبه فإن وافقه قبله وإن خالفه حرّفه وأوله .

ومن الأدب معه ﷺ أن لا يتقدم بين يديه بأمر ولا نهي ولا إذن ولا تصرف حتى يأمر هو وينهى ويأذن ، كما قال الله تعالى : ﴿**يا أيها الذين آمنوا لا تقدموا بين يدي الله ورسوله**﴾ ، وهذا الأمر باق إلى يوم القيامة ، فالتقدم بين يدي سنته بعد وفاته كالتقدم بين يديه في حياته ، قال الله تعالى : ﴿**لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة لمن كان يرجوا الله واليوم الآخر وذكر الله كثيرا**﴾ .

ومن الأدب معه ، أن لا ترفع الأصوات فوق صوته فإنه سبب لحبوط الأعمال ، فما الظن برفع الآراء ونتائج الأفكار على سنته وما جاء به؟

والكلام على الآداب المفروضة على الأمة تجاه رسول الله ﷺ مما لا يسعه هذا الموضع لجلالته وعظيم نفعه إذ هو الدين كله ، فمن أين للخلق أن يعرفوا ربهم وأن يعبدوه ويتقربوا إليه بمحابه ويتجنبوا سخطه وغضبه إلا عن طريق الرسول ﷺ ؟

ب- ومن مقتضيات الإيمان بالرسول الشهادة له بالرسالة ، والرضا

به عبداً لله ورسولاً ، والإيمان بصفاته التي وصف بها في الوحي دون إفراط فيه إلى حد الغلو كما صنعت النصارى مع المسيح ، ولا تفريط في حقه إلى حد التنقيص من قدره أو إيذائه كما فعل بنو إسرائيل مع أنبيائهم فريقاً كذبوا وفريقاً يقتلون .

وقد لخص أهل العلم معنى شهادة أن محمداً رسول الله في كلمات : تصديقه فيما أخبر ، وطاعته فيما أمر ، والانتهاء عما نهى عنه وزجر ، ﷺ وألا يعبد الله إلا بما شرع بأمر ربه ﷻ .

فما حظ المخالف من هذا الإيمان ومن هذه الشهادة؟

قال رسول الله ﷺ : «مفاتح الغيب خمس لا يعلمها إلا الله» ، وقال لجبريل عليه السلام لما سأله عن الساعة : «ما المسئول عنها بأعلم من السائل» متفق عليه ،

فزعم أن النبي ﷺ يعلم مفاتح الغيب الخمس ومنها علم الساعة .

* وقال النبي ﷺ : «إني لم أومر أن أنقب عن قلوب الناس» متفق عليه .

وقال أيضاً : «إنما أنا بشر وإنه يأتيني الخصم فلعل بعضهم أن يكون أبلغ من بعض فأحسب أنه صادق فأقضي له» متفق عليه .

فزعم المخالف أن النبي ﷺ يعلم عزائم القلوب وخطراتها ونياتها .

* وقال ﷺ مخاطباً فلذه كبده فاطمة رضي الله عنها : «سليني من مالي ما شئت لا أغني عنك من الله شيئاً» متفق عليه .

وقال النبي ﷺ : «والله إني لا أدري وأنا رسول الله ما يفعل بي» (رواه البخاري ١/١١٤) .

فزعم المخالف أن بيد النبي ﷺ مقاليد الأمور ، فله أن يُقطع أرض الجنة لمن شاء وأن يرحم ويغفر ويتوب على من شاء ، وأن يشفع لمن شاء ، وزعم أنه ﷺ دعا الله أن لا يدخل أحد من أهل بيته النار فأعطي ذلك ، (الذخائر ٢١٦) ، وكذا أصهاره ، (الذخائر ص٢٢٤) . وغلا أكثر فزعم أن أهل البيت لا يجوز عليهم الخطأ أصلاً ، موافقة لغلاة الشيعة في اعتقادهم العصمة لأهل البيت ، (شفاء الفؤاد ص ٢١٩) .

* وأخبر النبي ﷺ عن حال أبويه عبدالله وآمنة ، فقال : «استأذنت ربي أن أستغفر لأمي فلم يأذن لي واستأذنته أن أزور قبرها فأذن لي» رواه مسلم .

قال الإمام النووي رحمه الله : «فيه جواز زيارة المشركين في الحياة وقبورهم بعد الوفاة وفيه النهي عن الاستغفار للكفار» ا هـ (ملخصاً من شرح النووي على صحيح مسلم ٧/٤٩) .

وعن أنس رضي الله عنه أن رجلاً قال : يا رسول الله أين أبي؟ قال في النار . فلما قفَّى دعاه فقال : «إن أبي وأباك في النار» رواه مسلم .

قال الإمام النووي رحمه الله : « فيه أن من مات على الكفر فهو في النار ولا تنفعه قرابة المقربين ، وفيه أن من مات في الفترة على ما

كانت عليه العرب من عبادة الأوثان فهو في النار ، وليس هذا مؤاخذة قبل بلوغ الدعوة فإن هؤلاء كانت قد بلغتهم دعوة إبراهيم وغيره من الأنبياء صلوات الله تعالى وسلامه عليهم» ا هـ (من شرح النووي على صحيح مسلم ٣/٧٩) .

فضاق صدر المخالف بهذين الخبرين الصادقين عن المعصوم ، وسلط عليهما سهام التكذيب والتبديل للطعن في دلالتهما على المطلوب .

أما التكذيب فقوله : (إن تلك الأحاديث - يعني هذين الخبرين - لم ترتفع عن درجة الآحاد) ، (الذخائر ص٣٧) .

قلت : فهذا هو التكذيب بعينه وإن سمي بغير اسمه ، أو لُبِّس بلباس من غير جنسه ، وهو مسلك ممقوت دأب عليه المخالفون ، حيث يحكّمون أهواءهم وعقولهم القاصرة في نصوص الكتاب والسنة ، فما وافق أهواءهم وعقولهم قبلوه وجعلوه حجة قطعية ، وما خالفها ردوه وجعلوه دلالة ظنية ، وبذلك المسلك الفجّ طعنوا في نصوص كثيرة محكمة بحجة أنها أخبار آحاد ، لا تفيد - بزعمهم - إلا الظن .

* وأما التبديل فبدعوى النسخ ، حيث زعم أن الله أحيا له أبويه ، فآمنا به (الذخائر ص٣٧) .

وهذا الزعم مع كونه لا دليل عليه ، فإن فيه عدة محاذير :

منها : أنه يقتضي أن الله تعالى حفظ لهذه الأمة الدليل المنسوخ

الذي يلزمهم أن يكفروا به ويطرحوه ، وأنساهم الدليل الناسخ الذي يجب عليهم أن يؤمنوا به ويعتقدوه . وفيه ما فيه من إساءة الظن بالمولى عز وجل ، ووصفه بما لا يليق أن يوصف به ، تعالى الله عما يقول الظالمون علواً كبيراً .

ومنها : الطعن في حملة العلم من هذه الأمة الخيرة بدءاً بالصحابة رضوان الله عليهم وانتهاء بالأئمة الأول بدعوى أنهم حفظوا لنا المنسوخ وبلغوه ، وضيعوا الناسخ وكتموه .

ثم هو مناقض لمذهبه الأول ، إذ قرر هناك أنهما من أهل الفترة وماتا على الفطرة ، (الذخائر ص٣٥) ، ويقول هنا أنهما على الإيمان بعد أن أحياهما الله له ، فتناقض قولاه وتساقطاً .

* ومن أمثلة اعتراضه على حكم النبي ﷺ ومعارضته في أمره ونهيه ما يأتي :

* قال النبي ﷺ : «لا تقولوا ما شاء الله وشاء محمد» (رواه أحمد ٣٩٣/٥) .

وقال المخالف : (فعليك الصلاة تبقى من الله كما شاء كثرة وتشاء) (الشفاء ص٢١٩) .

* وقال النبي ﷺ : «لا تطروني كما أطرت النصارى ابن مريم إنما أنا عبد فقولوا عبدالله ورسوله» .

وقال المخالف : (يا من يجود على الوجود بأنعم خضر) ، (يا من نناديه فيسمعنا على بعد المسافة سمع أقرب أقرب) ، (بنور رسول

الله أشرقت الدنا ففي نوره كل يجيء ويذهب) ، (رب الجمال ، رب الحور ، باب الله ، غياث الخلق ، غوث من في الخافقين) .

وقال فيه أيضاً : (إنه أوتي علم الخمس والروح ، وأنه يعلم الخطرات والنيات ، وأنه سمي بأسماء الله الحسنى كلها ومنها الأول والآخر والباطن والظاهر ، وأن قبره أفضل من السموات والأرض والعرش وجنة عدن ، وأن له أن يُقطع أرض الجنة لمن شاء ، وأن الله خلق الخلق لأجله ، وأن ليلة مولده أفضل من ليلة القدر (الذخائر ص٢٥) . وأن سمعه يصل إلى سدرة المنتهى) .

الخاتمة

وبعد ، فها أنت أخي الكريم قد وقفت على بعض أقوال المخالف في كتابين فقط من كتبه ، واطلعت على ما فيهما من كفر صريح وشرك واضح ومناقضة لأصول الإيمان وأركان الإسلام .

وأحسب أن الدهشة قد عقدت لسانك من تلك الجرأة العجيبة على الله وملائكته وكتابه ورسوله ﷺ .

ولعلك تساءلت في نفسك بعد إمعان النظر في ذلك الكم الهائل من المخالفات الشرعية الواضحة وضوح الشمس ، وقلت : كيف خفي على المخالف مثل هذه الأمور فوقع فيما لا ينبغي لأحد أن يقع فيه؟

وحق لك أن تدهش وتعجب ، فالذي قاله وقرره ونقله وأقره ليس بالهين بل هو عند الله عز وجل وعند رسوله ﷺ وعند المؤمنين عظيم .

لكنك - أخي الفاضل - لو اطلعت على مذهب القوم ومشربهم وتتبعت أحوالهم وسيرهم عبر القرون الغابرة ، لزال عنك كثير مما نزل بك من الدهشة والعجب ؛ إذ سوف ترى أن ما كتبه هذا المخالف المبتدع مما نقلته لك ، ليس إلا نقطة من بحر متلاطم الموج ، مما قاله أسلافه من غلاة المبتدعة وسطروه من أمثال الحلاج وابن الفارض وابن عربي المكي والعفيف التلمساني وأضرابهم من غلاة الصوفية الباطنية

الذين صرحوا بما لا يخطر على قلب مسلم ، مما تقشعر له الجلود من ساقط القول وفاحش الكلم .

ومن عجائب ما وقفت عليه من حالهم ، أن الولاية عندهم ، وهي المقام الأسمى الذي يفوق عندهم مقام النبوة ، لا يصل إليها أحدهم إلا إذا تمادى في الكفر وصرح به في الملأ حتى يحكم عليه طائفة من الأولياء بالزندقة والكفر .

فقد نقلوا عن الجنيد ، ويسمونه سيد الطائفة : (لا يكون الصديق صديقاً حتى يشهد له في حقه سبعون صديقاً أنه زنديق) (المناظر الإلهية لعبدالكريم الجيلي ص٤٤) ، وانظر كتاب هذه هي الصوفية لعبدالرحمن الوكيل تر العجب .

ولعل الرجل يسعى حثيثاً إلى بلوغ ذلك المقام ووصول تلك المنزلة من الولاية والمعرفة عن طريق الكفر والزندقة ، ويحلم باليوم الذي يقال له فيه : العارف بالله ، القطب ، الغوث . . . ونحوها من الألقاب العلية عندهم .

وعلى كل فالذي يهمنا نحن أن لا ينال أحد من مقام الألوهية والربوبية ، ولا من مقام النبوة والرسالة ، وأن لا ينال من الإسلام والقرآن والسنة ، ولن نرضى أن تشاك شريعة الله وسنة الرسول ﷺ بشوكة وفينا عين تطرف . ولن يهنأ لنا عيش ولن تطيب لنا حياة ونحن نرى أركان الإيمان تنقض ودعائم الإسلام تقوض .

إن الله عدل يحب العدل ويأمر بالقسط ، وإن أعدل العدل

توحيد الله بالعبادة ، كل العبادة ، وتوحيد الطريق إليه بالإسلام دون ما سواه ، وتجريد المتابعة للرسول بطاعته والتأسي به دون غيره من الناس ، قال الله تعالى : ﴿**لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة لمن كان يرجوا الله واليوم الآخر وذكر الله كثيراً**﴾ ، وهذه هي الأصول التي يبنى عليها الدين كله .

وإن من العدل الذي قام عليه الدين وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة أن لا يجتمع الكفر والإيمان ، ولا الشرك والتوحيد ، ولا الإثم والبر ، ولا الجنة والنار ، قال الله تعالى : ﴿**وما يستوى الأعمى والبصير . ولا الظلمات ولا النور . ولا الظل ولا الحرور ، وما يستوى الأحياء ولا الأموات إن الله يسمع من يشاء وما أنت بمسمع من في القبور . إن أنت إلا نذير**﴾ .

ومن العدل الذي أمر الله به أن نتبرأ من كل مخالف معاند بحسب مخالفته وعناده بعد أن ندعوه إلى الحق ونقيم الحجة البالغة عليه .

وإني أنصح كل من يغضب لهذا المخالف وتدعوه لموافقته وموالاته والمنافحة عنه حمية مذهب أو عصبية مشرب أو مودة إلف وعادة ونسب ، أن يفكروا في الأمر بروية وأن يقدموا حب الله وحب رسوله ﷺ على كل ما سواهما من محبوب ، وأن يدّبّروا آيات الكتاب العزيز ، كيف فرق العدل الحكم تبارك وتعالى بين نوح عليه السلام وابنه ، بعد أن أصر على الكفر فقال له ربه : ﴿**إنه ليس من أهلك إنه**

عمل غير صالح﴾ . وكذا الحال مع إبراهيم عليه السلام وأبيه : **﴿فلما تبين له أنه عدو لله تبرأ منه إن إبراهيم لأواه حليم﴾** .

وقد أمر الله تبارك وتعالى المؤمنين بالتأسي بإبراهيم عليه السلام في تلك البراءة فقال : **﴿قد كانت لكم أسوة حسنة في إبراهيم والذين معه إذ قالوا لقومهم إنا برءاء منكم ومما تعبدون من دون الله كفرنا بكم وبدا بيننا وبينكم العداوة والبغضاء أبداً حتى تؤمنوا بالله وحده﴾** .

ولو كان في الدين محاباة لكان أولى الناس بها ابن نوح وأبو إبراهيم وزوجة لوط وعم النبي ﷺ أبو طالب .

ونصيحة أسديها إلى أخي في الانتماء إلى الإسلام وفي النسب أختم بها كلامي ، أدعوه فيها إلى توبة نصوح عاجلة مما قاله وتكلم به وسطره بقلمه من كل ما يخالف شرع الله وسنة رسول الله ﷺ ولو عن غير قصد منه لذلك . فإن استجاب وأناب فقد أفلح - والله - في العاجلة والآجلة ، وإن أصر وعاند واستكبر فقد مضت سنة الأولين .

فأقول أيها الأخ تذكر يوم العرض الأكبر : **﴿يومئذ تعرضون لا تخفى منكم خافية﴾** . واعتبر : **﴿يوم تبلى السرائر فما له من قوة ولا ناصر﴾** . واعلم أنه لن ينفعك في ذلك الموقف العصيب جاه ولا منصب : **﴿يوم يفر المرء من أخيه . وأمه وأبيه . وصاحبته وبنيه . لكل امريء منهم يومئذ شأن يغنيه﴾** ، **﴿وإن تدع مثقلة إلى**

حملها لا يحمل منه شيء ولو كان ذا قربى﴾ ، ﴿يوم تأتي كل نفس تجادل عن نفسها وتوفى كل نفس ما عملت وهم لا يظلمون﴾ .

واحذر من أن تكون ممن قال الله فيهم : ﴿وليحملن أثقالهم وأثقالاً مع أثقالهم ، وليسألن يوم القيامة عما كانوا يفترون﴾ ، ﴿ليحملوا أوزارهم كاملة يوم القيامة ومن أوزار الذين يضلونهم بغير علم ألا ساء ما يزرون﴾ .

وبعد ، فأسأل الله العلي العظيم بأسمائه الحسنى وصفاته العلى أن يهدينا وإياه وسائر عباده سبيل الرشاد ، وأن يرينا الحق حقاً ويرزقنا اتباعه ، ويرينا الباطل باطلاً ، ويرزقنا اجتنابه ، وأن يعيذنا من أهواء نفوسنا الأمارة بالسوء ، وأن يجعل هوانا تبعاً لما جاء به الرسول ﷺ ، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين .

وكتب : سمير بن خليل المالكي

٦/٥/١٤١٧هـ

الفهرس

الموضوع	الصفحة
تقديم	٣
تمهيد	
تعريف بكتاب الذخائر المحمدية.	١٣
تعريف بكتاب شفاء الفؤاد.	٢٥
الخلاصة.	٣٥
المقدمة	
﴿اعبدوا الله مالكم من إله غيره﴾.	٤٣
﴿ولئن سألتهم من خلقهم ليقولن الله﴾.	٤٧
﴿وقالوا لا تذرن آلهتكم﴾.	٤٩
سد ذرائع الشرك.	٥٣
«ألا فلا تتخذوا القبور مساجد».	٥٥
﴿لا تغلوا في دينكم﴾.	٦٣

الباب الأول

الدعوة إلى الشرك

الشرك في العبادة. ٧١

صورة مثال النعل النبوي الشريف. ٨٣

﴿ . . : بل هم أضل﴾. ٨٧

الشرك في الربوبية. ٩٣

فصل: ﴿وذروا الذين يلحدون في أسمائه﴾. ١٠٥

الباب الثاني

الافتراء على الملائكة الكرام ١٠٧

الباب الثالث ١١٥

نقض أركان الإيمان ١١٥

الخاتمة. ١٢٥